Journal of Humanities and Social Sciences
Volume (6), Issue (13) : 30 Nov 2022
P: 104 - 129
ISSN: 2522-3380
مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
المجلد (6)، العدد (13) : 30 نوفمبر 2022م
ص: 104 - 129

Jerusalem and the question of bargaining in the Ayyubid Crusader negotiations during the Fifth, Sixth and Seventh Crusades

Mohammed Hidar Alastal
Al-Aqsa University || Gaza || Palestine

Abstract: The study aimed to identify Jerusalem and the issue of bargaining in the Ayyubid Crusader negotiations during the Fifth, Sixth and Seventh Crusades, where Jerusalem played a pivotal and central role in the Islamic Crusader conflict during the Crusades, especially during the Ayyubid era due to its religious importance to Muslims, not only to kings and princes, but Also to the general public for what it represented from a religious ideological aspect, as Jerusalem was the focus of the conflict during the Crusades during the era of Salah al-Din al-Ayyubi and after Salah al-Din al-Ayyubi. Saladin fought the Crusaders and liberated Jerusalem and achieved many victories, but after The death of Salah al-Din al-Ayyubi, his legacy was divided among his sons and brothers, this led to a weaker situation than it was during his rule, especially related to the city of Jerusalem, and this had an impact on the course of events later, where the researcher reached the following results:

1.Jerusalem was the focus of the conflict during the Crusades against the Islamic East during the era of Salah al-Din al-Ayyubi. He fought the Crusaders, liberated Jerusalem, achieved many victories, and refused to abandon Jerusalem.

2. Despite the Muslims' adherence to Jerusalem, and the Muslims' rejection of the Crusader occupation; Because Jerusalem holds great importance to the Islamic faith, but personal interest and fear for the seat of power were the reason for bargaining over Jerusalem in the Fifth, Sixth and Seventh Crusades.

3. Some of the Ayyubid rulers bargained to compromise over Jerusalem in their negotiations with the Crusader side, and this appeared in the complete surrender of Jerusalem to the Crusaders, through the Jaffa Agreement, and this is a clear evidence of not adhering to Jerusalem; To maintain the seat of power in Egypt at the time.

Keywords: Jerusalem, bargaining, negotiations, the Ayyubids, campaigns, the Crusaders.

القدس ومسالة المساومة في المفاوضات الأيوبية الصليبية خلال الحملات الصليبية الخامسة والسادسة والسابعة

محمد حيدر الأسطل
جامعة الأقصى || غزة || فلسطين

المستخلص: هدفت الدراسة الى التعرف على القدس ومسالة المساومة في المفاوضات الأيوبية الصليبية خلال الحملات الصليبية الخامسة والسادسة والسابعة، حيث لعبت القدس دوراً محورياً ومركزياً في الصراع الاسلامي الصليبي خلال الحروب الصليبية وخصوصاً في العهد الأيوبي نظراً لأهميتها الدينية لدى المسلمين، ليس فقط عند الملوك والامراء بل ايضاً عند عامة الشعب لما تمثله من جانب عقائدي ديني، حيث كانت القدس محور الصراع خلال الحروب الصليبية في عهد صلاح الدين الأيوبي وبعد صلاح الدين الايوبي، فقد حارب صلاح الدين الصليبين وحرر بيت المقدس وحقق الكثير من الانتصارات الا انه بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي تم تقسيم إرثه على أبنائه وإخوته، أدى ذلك الى ضعف الحال عما كان عليه أثناء حكمه خصوصاً المتعلقة بمدينة القدس، فكان ذلك له تأثير على مجريات الاحداث فيما بعد، حيث توصل الباحث الى النتائج التالية :

1. كانت القدس محور الصراع خلال الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي في عهد صلاح الدين الأيوبي، وقد حارب الصليبين وحرر بيت المقدس وحقق الكثير من الانتصارات ورفض التخلي عن القدس.
2. فالرغم من تمسك المسلمين بالقدس، ورفض المسلمين الاحتلال الصليبية؛ لما تحمله القدس من أهمية كبيرة لدى العقيدة الإسلامية، إلا أن المصلحة الشخصية، والخوف على كرسي السلطة كان سبب في المساومة على القدس في الحملات الصليبية الخامسة والسادسة والسابعة.
3. ساوم بعض حكام الأيوبيين للتنازل والمساومة على القدس في مفاوضاتهم مع الجانب الصليبي، وظهر ذلك في تنازل الكامل عن القدس للصليبين، من خلال اتفاقية يافا، وهذا دليل صارخ على عدم التمسك بالقدس؛ للحفاظ على كرسي السلطة في مصر في حينه.

الكلمات المفتاحية: القدس، المساومة، المفاوضات، الايوبيين، الحملات، الصليبيين.

المقدمة:

نشأت الدولة الأيوبية كدولة اسلامية في مصر، وامتدت لتشمل الشام والحجاز واليمن والنوبة وبعض أجزاء المغرب العربي، حيث يعد السلطان صلاح الدين الأيوبي (ت589هـ) مؤسس الدولة الأيوبية سنة (567هـ/1174م)، الذي ورث الصراع مع الصليبين، الذي كان يهدف إلى إقامة مشروع استيطاني إحلالي يقوم على أسس مناقضة للحضارة الإسلامية ومحاربة لها، حيث هدف إلى السيطرة على المقدسات ومنها بيت المقدس والموقع الاستراتيجي في الشام ومصر، ويعّد هذا السبب من أهم الأسباب وراء الحملات الصليبية، حيث حاول الصليبين القضاء على المسلمين، والوقوف في وجه توسعهم المستمر، فالدين الإسلاميّ كان هدفًا لغير المسلمين للقضاء عليه؛ لذلك تذرّع الصليبين بحقّهم في بيت المقدس وإرجاعها إلى المسيحيين، وهذا كان ظاهرًا في الحملات الصليبيّة الأولى، حيث كان يلبس المحاربون الصليب بشكلٍ دائم.

لقد كانت العُصور الوسطى في الدول الأوروبية تسودها الكثير من المنازّعات والحروب، كما أنَّ البابوات أخذوا منزلةً كبيرةً وعظيمةً عند الأوروبيين، بحيث أصبح البابا هو الحاكِم الروحيّ لجميع المَسيحيين في العالَم، ولكن كان هناك نزاعٌ بين الكنيسة الأرثوذكسية الغربيّة والشرقيّة على من هي القوة الأكبر، ومن التي تنادي بالأفكار الصحيحة، فحاولتا فرض رأيهما وأفكارهما، فكان الاتجاه إلى التفكير بالمقدّسات المسيحيّة الموجودة في الدول الإسلامية لضمّها مع تراثهم الغربي والقضاء على الدين الإسلاميّ، وتقوية الكنيسة الأرثوذكسية الغربيّة؛ ولذلك سيرت الحملات الصليبية إلى الشرق الإسلامي، وأقامت الإمارات الصليبية على سواحل وأراضي الشام، وأصبحت هذه الإمارات مهددة للهوية الإسلامية للمنطقة، وقد كان موقف الدولة الأيوبية واضحاً برفض هذا الاحتلال من خلال جولات القتال والدفاع عن الاراضي الاسلامية، ومن الملاحظ أن الاشتباك العسكري بين الأطراف تخلله عمل دبلوماسي وسياسي نشط، فقد مارس الأيوبيون المفاوضات التي تمخضت عن عقد عدد من المعاهدات، وخصوصاً المفاوضات على القدس.

أهداف الدراسة:

هذه الدراسة هدفت من خلال معرفة الاهداف التي تمت من اجلها، ولهذه الدراسة العديد من الاهداف، هي:

1. التعرف على المفاوضات والمعاهدات التي عقدت بين الأيوبيين والصليبين حول مدينة القدس خلا ل الحملات الصليبية الخامسة والسادسة والسابعة، وتحليل نصوصها والاستفادة منها.
2. تتبع نتائج بعض المفاوضات المعاهدات التي عقدت بين الأيوبيين والصليبين حول مدينة القدس.
3. معرفة الكيفية التي أدارت بها الدولة الأيوبية المفاوضات مع الصليبين حول مدينة القدس وأخذ العبر.

4. معرفة موقف الدولة الأيوبية من القدس في المفاوضات الأيوبية الصليبية خلال الحملات الخامسة والسادسة والسابعة.

أهمية الدراسة:

1. إلقاء الضوء على القدس ومسالة المساومة المفاوضات بين الأيوبيين والصليبين في إطار الصراع بين الطرفين.
2. تسليط الضوء على بعض المعاهدات التي عقدت بين الأيوبيين الخاصة بمدينة والقدس خلال الحملات الخامسة والسادسة والسابعة، وتحليل نصوصها، ودراسة ظروفها ونتائجها على الصراع الإسلامي الصليبي.
3. معرفة أساليب كل من الطرفين الأيوبي والصليبي في إدارة المفاوضات وعقد المعاهدات فيما بينهما.
4. يمكن الاستفادة من تجربة الأيوبيين في إدارة الصراع وإجراء المفاوضات وعقد المعاهدات مع المحتل الصليبي من حيث السلبيات والإيجابيات؛ ولأن هذه الحقبة الزمنية تتشابه إلى حد كبير مع صراعنا مع العدو الصهيوني المحتل.

1- منهجية الدراسة: منهجية التحليل: اتبع الباحث المنهج التاريخي الوصفي التحليلي من خلال جمع ونقد وتحليل الروايات التاريخية التي تناولت المراحل المختلفة للمفاوضات، كما اعتمد على التسلل الزمني في الأحداث.
2- مصادر البيانات: استندت الدراسة على المصادر التاريخية بشكل أساسي التي تحدثت عن المفاوضات الأيوبية الصليبية وخصوصاً التي تناولت المفاوضات حول القدس.
3- حدود الدراسة: فترة حكم الدولة الأيوبية (569 هـ- 1174م / 647هـ- 1250م).

هيكلة الدراسة:

تم تقسيم هذه الدراسة إلى أربع مباحث، يتناول المبحث الأول منها الإطار النظري للدراسة والدراسات السابقة، بينما يتطرق المبحث الثاني إلى المفاوضات الأيوبية الصليبية على القدس خلال الحملة الفرنجية الخامسة، بينما يتناول المبحث الثالث الحملة الصليبية السادسة بقيادة فردريك الثاني ومسالة المساومة على القدس، بينما تناول المبحث الثالث: الحملة الفرنجية السابعة على مصر.

المبحث الأول- الإطار النظري والدراسات السابقة

أولاً: فتح بيت المقدس مفاوضات صلاح الدين الايوبي مع الصليبين

في سنة (583هـ/1187م) تمكن صلاح الدين من بسط سيطرته على أغلب المدن الفلسطينية، وتوجه إلى القدس لفتحها، وفرض عليها حصارًا، وجرت جولات قتال بين المسلمين والفرنج، كانت نقطة التحول في القتال عندما استشهد من المسلمين الأمير عز الدين عيسى بن مالك، وهو من أكابر الأمراء، وكان أبوه صاحب قلعة جعبر، وكان يصطلي القتال بنفسه كل يوم، وكان محبوبًا إلى الخاص والعام، فلما رأى المسلمون مصرعه عظم عليهم ذلك، وأخذ من قلوبهم، فحملوا حملة رجل واحد، فأزالوا الفرنج عن مواقفهم، فأدخلوهم بلدهم، ووصل المسلمون إلى الخندق، فجازوه والتصقوا إلى السور فنقبوه، وبهذا تمكن المسلمون من تحقيق نصر نوعي يعجل في نهاية المعركة لصالحهم.[1]

(1) ابن الأثير، أبو الحسن على بن أبي الكرم (ت 630هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام، الطبعة: (1997م)، بيروت، دار الكتاب العربي، (ج10/ ص: 35).

فلما رأى الفرنج شدة قتال المسلمين، وتحكم المجانيق بالرمي المتدارك، وتمكن النقابين من النقب، وأنهم قد أشرفوا على الهلاك، اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يأتون ويذرون، فاتفق رأيهم على طلب الأمان، وتسليم بيت المقدس إلى صلاح الدين، فأرسلوا جماعة من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان، فلما ذكروا ذلك للسلطان امتنع من إجابتهم، وقال: لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة إحدى وتسعين وأربعمائة، من القتل والسبي، وجزاء السيئة بمثلها.[2]

ويأتي رفض صلاح الدين الأول لمبادرة الاستسلام من واقع ما حدث إبان احتلال القدس الأول، وحجم المجازر الفرنجية، إلا أن المتتبع لمجريات فتوحات صلاح الدين قبيل التوجه للقدس يجد أن طابع العفو والتسامح هو المسيطر على رأيه.

فلما رجع الرسل خائبين محرومين، أرسل باليان بن بيرزان[3]، وطلب لنفسه أن يحضر عند صلاح الدين في هذا الأمر وتحريره، فأجيب إلى ذلك، وحضر عنده، ورغب في الأمان، وسأل فيه، فلم يجبه إلى ذلك، واستعطفه فلم يعطف عليه، واسترحمه فلم يرحمه.[4]

وفي هذا الموقف، وهذا الرد على القائد الفرنجي، وما حصل معه جراء موقف صلاح الدين، يجعله في موقف تفاوضي حرج، فكان رده من باب المنهزم الذي لم يعد في يده أي شيء سوى نفسه، فكان رده أكثر اصرارًا على المواصلة، وهو يعلم سالفًا ما سوف تنتهي به الظروف إذا تواصل القتال، فالنتيجة هنا محسومة سلفًا.

فكان عرض القائد الإفرنجي مساومة على المكاسب الإسلامية، وليس نصرًا، فقد وجه خطابًا لصلاح الدين فحواه: "أيها السلطان: اعلم أننا في هذه المدينة في خلق كثير، لا يعلمهم إلا الله تعالى، وإنما يفتُرُون عن القتال رجاء الأمان، ظنًا منهم أنك تجيبهم إليه، كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة، فإذا رأينا أن الموت لا بد منه، فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا، ونحرق أموالنا وأمتعتنا، ولا نترككم تغنمون منها دينارًا واحدًا ولا درهمًا، ولا تسبُون وتأسرون رجلًا ولا امرأة، وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع، ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين، وهم خمسة آلاف أسير، ولا نترك لنا دابة ولا حيوانًا إلا قتلناه، ثم خرجنا إليكم كلنا، فقاتلناكم قتال من يريد أن يحمي دمه ونفسه، وحينئذ لا يقتل الرجل حتى يقتل أمثاله، ونموت أعزاء أو نظفر كرامًا".[5]

هذا الخطاب يجعل الموقف التفاوضي مختلفًا قليلًا، ولا يحسم الموقف، وبالرجوع إلى الموقف العسكري نجد أن طلب الفرنج للتفاوض بسبب تمكن المقاتلين المسلمين من اختراق تحصينات مدينة القدس، وأن الاقتحام لم يتبقى له إلا أمر التنفيذ، وأن النصر آتٍ لا محالة في ظل تفوق إسلامي كبير.

ونضيف إلى ذلك: موقف صلاح الدين من الموافقة على طلب القائد الفرنجي، وهنا نضع سؤالًا: لماذا وافق صلاح الدين على لقاء القائد الافرنجي؟، والاجابة: هي لتحقيق مصلحة تفاوضية تحقن الدماء.

---

(2) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (ج10/ ص: 35).

(3) باليان بن بيرزان: باليان الثاني الإبليني، صاحب الرملة قبل سقوطها، ومرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك، نزح إلى القدس جراء هزيمة حطين. ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، محمَّد بن سالم بن نصرالله بن سالم ابن واصل، أبو عبد الله المازني التميمي الحموي، جمال الدين (ت ٦٩٧هـ)، تحقيق: جـ ١، جـ ٢، جـ ٣: الدكتور جمال الدين الشيال، جـ ٤، جـ ٥: الدكتور حسنين محمد ربيع والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القومية - المطبعة الأميرية، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م، عدد الأجزاء: 5، (ج2/ ص: 211).

(4) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (ج10/ ص: 36).

(5) المرجع السابق (ج10/ ص: 36).

أما فيما يخص موقف القائد الصليبي من قضية قتل الأسرى المسلمين، فهو أمر تفاوضي، استغله بشكل محكم وفق الرواية، ولكن ألم يكن لدي المسلمين أسرى صليبيين جراء معركة حطين والمعارك الثانوية بعدها لمقايضة القائد الافرنجي؟، والاجابة: هي أن للفرنجة الكثير من الأسرى في يد المسلمين.[6]

وهذا يجعل تهديدات القائد الفرنجي خالية، وأن الموقف الإسلامي كان هدفة انتهاء المعركة بأقل الخسائر، وعلى إثر ذلك، استشار صلاح الدين أصحابه في قضية التفاوض، فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان، وأن لا يَخرجُوا، وألا يُحملوا على ركوب ما لا يُدرى عاقبة الأمر فيه عن أي شيء ينجلي، ونحسب أنهم أسارى بأيدينا، فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم، فأجاب صلاح الدين حينئذ إلى بذل الأمان للفرنج.[7]

وقد استقرت المفاوضات الاستسلامية على شروط تعويضية، وجاءت على النحو الآتي: "أن يزن الرجل عشرة دنانير يستوي فيه الغني والفقير، ويزن الطفل من الذكور والبنات دينارين، وتزن المرأة خمسة دنانير، فمن أدى ذلك إلى أربعين يومًا فقد نجا، ومن انقضت الأربعون يومًا عنه ولم يؤد ما عليه فقد صار مملوكًا"، والبند الأخير يعطي الفرنجة من الفقراء الفرصة لدفع ما علية من فدية لتحرير نفسة تقدر بـ(40) يوم.[8]

وقد أورد ابن الأثير نصًا يؤكد قصد صلاح الدين في أن يجعل الأمر بدون إراقة دماء، وجاء فيه: "وأما الفرنج من أهله فإنهم أقاموا وشرعوا في بيع ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وذخائرهم وأموالهم، وما لا يطيقون حمله، وباعوا ذلك بأرخص الثمن، فاشتراه التجار من أهل العسكر، واشتراه النصارى من أهل القدس، الذين ليسوا من الفرنج، فإنهم طلبوا من صلاح الدين أن يمكنهم من المقام في مساكنهم، ويأخذ منهم الجزية، فأجابهم إلى ذلك، فاشتروا حينئذ من أموال الفرنج" .[9]

ومن هذا القول: نجد أن استراتيجية صلاح الدين بأن يفرق بين سكان القدس الأصليين من النصارى الفلسطينيين المقيمين في مدينة القدس، وهذا الأمر له بعد ديمغرافي واجتماعي، إضافة إلى ذلك: سار على ما سار عليه الخليفة عمر بن الخطاب في العهدة العمرية إبان تحرير القدس.

وهذا يوكد القصد من وراء موافقة صلاح الدين على الخروج بدون إراقة الدماء بفعل تفاوضي لصالح المسلمين، وأما هذا الرأي نجد أن ابن الأثير انتقد صلاح الدين في تساهله مع الإفرنج، فقد صعب على صلاح الدين فتح مدينة صور؛ لما امتلأت به من المقاتلين والجنود، جراء هجرة من كان في القلاع والحصون التي فتحها صلاح الدين، وأمام هذا قال: "ليعلم أن الملك لا ينبغي أن يترك الحزم، وإن ساعدته الأقدار؛ فلأن يعجز حازمًا خير له من أن يظفر مفرطًا مضيعًا للحزم، وأعذر له عند الناس .[10]"

---

(6) الأصبهاني، حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس «وهو الكتاب المسمى الفتح القسي في الفتح القدسي» المؤلف: أبو عبد الله، محمد بن (محمد صفي الدين) ابن (نفيس الدين حامد) بن أُلْه، عِمَاد الدِّين الكاتب الأصبهاني (المتوفى: 597هـ) الناشر: دار المنار الطبعة: الأولى، 1425 هـ - 2004 م عدد الأجزاء: 1، (ص: 293).

(7) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج10/ ص: 35).

(8) المرجع السابق، (ج10/ ص: 36).

(9) الكامل في التاريخ، (ج10/ ص: 36).

(10) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج10/ ص: 38)؛ وابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي)، يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي الموصلي، أبو المحاسن، بهاء الدين ابن شداد (ت ٦٣٢هـ)، تحقيق: الدكتور جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، (ص: 147).

ثانياً: الدراسات السابقة

الحقيقة أن الكثير من المراجع المعاصرة التي تعرضت، لمسالة المفاوضات الأيوبية بشكل عام، اما هذه الدراسة تناولت القدس ومسالة المساومة في المفاوضات الأيوبية الصليبية بشكل خاص خلال الحملات الصليبية السادسة والسادسة والسابع حيث :اطلع الباحث على مكتبات الرسائل العلمية والابحاث المحكمة في الجامعات العربية، وحسب علم الباحث ليس هناك دراسة تتناول الموضوع بشكل دقيق ومباشر، لكن يمكن الاستفادة من عدة دراسات علمية أكاديمية، وأهمها:

1. الدبلوماسية الأيوبية الصليبية (1191م-1192م): تأليف أشرف صالح محمد السيد، من إصدارات معهد فلسطين للدراسات الاستراتيجية التابع لمؤسسة إبداع، حيث يسلط الضوء على الدبلوماسية الأيوبية الصليبية لفترة معينة، وطريقة استخدام الدبلوماسية أثناء التفاوض وعقد المعاهدات.
2. المفاوضات بين الزنكيين والصليبين (520-569هـ/1127-1174م)، بحث محكم للأستاذ الدكتور غسان محمود وشاح، نشر في مجلة الجامعة الإسلامية للعلوم الإنسانية، وهو بحث تناول المفاوضات والمعاهدات بين الزنكيين والصليبيين، حيث أظهر البحث أن الزنكيين استخدموا بجانب الإشتباك العسكري العمل السياسي والدبلوماسي من خلال المفاوضات مع الجانب الصليبي بإتباع استراتيجية تحييد بعض الإطراف الصليبية ليتسنى لهم الإستفراد بالطرف الأضعف والإجهاز عليه، وقد أستفاد الباحث من الدراسة في إعداد البحث .
3. يافا (قراءة تاريخية معاصرة): بحث محكم للأستاذ الدكتور رياض شاهين، نشر في مجلة الجامعة الإسلامية للعلوم الإنسانية، وهو بحث تناول اتفاقية يافا بين (فردريك) ملك ألمانيا والكامل الأيوبي(11) في مصر، حيث تناول البحث إحدى هذه الاتفاقيات المبرمة بين الأيوبيين والصليبيين، دون التطرق إلى جميع المفاوضات والمعاهدات بين الطرفين، فيما سيتناول موضع البحث المفاوضات والمعاهدات بين الأيوبيين والصليبيين منذ تأسيس الدولة الأيوبية وحتى نهايتها.
4. هدنة الرملة والظروف المحيطة: بحث محكم للأستاذ الدكتور رياض شاهين، نشر في مجلة الجامعة الإسلامية للعلوم الإنسانية، المجلد التاسع، العدد الأول، الجزء الأول، شوال 1421هـ، وهو يتناول العوامل المؤثرة في صلح الرملة بين ريتشارد ملك إنجلترا وصلاح الدين الأيوبي ملك مصر، وسنستفيد منه بآلية استخلاص الظروف المحيطة في عقد المعاهدات وطريقة المفاوضات.
5. قواعد التفاوض من خلال تجربة مفاوضات صلح الرملة: بحث محكم للدكتور سامي أبو زهري، وسنستفيد من البحث في بعض المعلومات التي ذكرت في أسس وقواعد التفاوض بين الأيوبيين والصليبين في صلح الرملة.

المبحث الثاني: المفاوضات الأيوبية الصليبية على القدس خلال الحملة الفرنجية الخامسة

انتهى عصر صلاح الدين الأيوبي بتقسيم إرثه على أبنائه وإخوته، تلك الفترة كانت تتسم بضعف الحال عما كان عليه أثناء حكم صلاح الدين الايوبي بسبب بعض الخلافات بين الورثة مما جعل اطماع الصليبين تبدأ من

(11) الملك الكامل الأيوبيّ (659هـ – 692هـ): هو محمد بن موسى بن يوسف بن أقسيس بن محمد بن أبي بكر بن أيوب بن شاذي، الملك الكامل، ناصر الدين، ابن الملك الأشرف مظفّر الدين، ابن الملك الناصر صلاح الدين، ابن الملك المسعود صلاح الدين، ابن الملك الكامل ناصر الدين، ابن الملك العادل سيف الدين، ابن نجم الدين، الأيوبيّ، ولد بالكرك ليلة الأربعاء سادس عشر شوّال سنة تسع وخمسين وستّمائة، وتوفّي يوم الخميس خامس شهر رجب سنة اثنتين وتسعين وستّمائة. ينظر: المقريزي، المقفى الكبير، تقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥ هـ)، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الاسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، عدد الأجزاء: ٨، (ج7/ ص: 125).

جديد فبدأ في بحملات جديدة لاسترجاع بيت المقدس، فمن الواضح أن هدف الحملة الصليبية الخامسة هو رغبة الأوروبيين في محو آثار الهزائم التي لحق بهم على يد صلاح الدين الأيوبي، وفشل الحملتين الصليبيتين الثالثة والرابعة في استرداد القدس من أيدي المسلمين، وإعادة السيطرة الصليبية عليها مرة أخرى.[12]

سبق الحملة الفرنجية تمهيد إفرنجي، حيث أخذ الفرنج في الإغارة على قرى ومدن الشام؛ لجمع المؤن والأموال، والملك العادل الأيوبي لا يقوى على ردِهم لضخامة جيوشهم، وعاثوا في الشام فسادًا، بحيث سيطر الفرنج على نابلس، وبانياس، وعكا، وما حولها، بالإضافة إلى اغتنامهم الكثير من المؤن والتجهيزات العسكرية من مدن الشام، وأخذوا معهم آلة الحصار، من مجانيق وغيرها، وقصدوا قلعة الطور، وهي قلعة منيعة على رأس جبل، بالقرب من عكا، كان العادل قد بناها عن قريب، فتقدموا إليها وحصروها وزحفوا إليها، وصعدوا في جبلها حتى وصلوا إلى سورها، وكادوا يملكونه.[13]

جاءت الحملة الصليبية الخامسة بتشجيع من المبشرين في فرنسا، ومن البابا أنوسنت الثالث، الذي أعلن أن المسلمين يستعدون للقضاء على ما تبقى من مملكة بيت المقدس اللاتينية، وأنه لا بد من دعمها بالمال والرجال، والعمل على إعادة الأمور إلى ما كانت عليه، وكتب إلى الملك العادل بأن يسلمه بيت المقدس.[14]

حاول البابا الاستفادة من الحماس، ومن جهود بعض المبشرين، وبخاصة في فرنسا، فبدأ بالتمهيد للدعوة للقيام بحملة صليبية جديدة، فعمل على عقد مؤتمر عرف باسم مجلس لاتيران الكنسي في (20 رجب/ 11 نوفمبر612 هـ/ 1215م)، شارك فيه كبار رجال الدين في الغرب والشرق، وجمع عددًا كبيرًا من الأمراء غير المهتمين بالشؤون الدينية، حيث بلغ عدد المشاركين فيه بالآلاف، ألقى فيهم البابا خطبة بليغة، تحدث فيها عما تعانيه القدس تحت حكم المسلمين، الذين ينتهكون حرمة كنيسة القيامة، ويتهكمون على صليب السيد المسيح، مطالبا الحاضرين بالمساعدة في تحريرها، وهو ما قابله المجتمعون بحماس شديد، متفقين على توجيه حملة صليبية إلى مصر، بعد أن وضعوا خططًا لذلك.[15]

هذا الحال شجع الأمراء الفرنج إلى تعجيل الحملة التي دعا اليها أنوسنت الثالث في أثناء انعقاد مجلس لاتيران الرابع لاستعادة الأراضي المقدسة، وغادرت الحملة الصليبية الخامسة بلاد ألمانيا، والنمسا والمجر في سنة (1217م) بقيادة (أندرو) ملك المجر.[16]

أولًا: توجه الحملة الفرنجية إلى مدينة دمياط

توجهت الحملة إلى مدينة دمياط، وفرضت عليها حصارًا شديدًا، وجرت معارك عديدة، بحيث دفعت القوات الفرنجية بكامل قوَتها إلى ميناء دمياط، ونزلوا على الميناء في موقعٍ اسمه (جيزة دمياط)، وقد دفع الملك العادل بابنة محمد، الملقب بالكامل، بجيش لصد الهجوم الفرنجي، وكان مفتاح دمياط برجًا منيعًا في غاية القوَة والصلابة، فيه سلاسل من حديد ضخمة، تمتد بطول النيل؛ لتمنع أي مراكب تريد الإغارة على البلاد من هذا

(12) ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت ٨٠٨هـ)، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م. ، (ج5/ ص: 398).

(13) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج10/ ص: 304).

(14) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (ج5/ ص: 399).

(15) عمران، محمود سعيد، تاريخ الحروب الصليبية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، 1991م (ص: 1095– 1291).

(16) ديورَانت، ويليام جيمس ديورَانت، قصة الحضارة، دار الجيل، 1988م، بيروت، لبنان، (ج15/ ص: 55).

الطريق، وقد ظل الوضع متجمّدًا طيلة أربعة أشهر، والفرنج يحاولون اقتحام برج السلسلة، والجيش المصري يدافع عن دمياط بكلِ قوَةٍ، حتى استطاع الصليبيون الاستيلاء على البرج بعد معركة طاحنة مع المدافعين عنه، ولمّا وصلت أنباء سقوط البرج للسلطان العادل الأيوبي تأوه لذلك بشدة، وأصابه الحزن، وقتله الهم في 7 جمادى الآخرة سنة(615هـ/1218م) .[17]

لم تنته معركة دمياط بوفاة الملك العادل وريث السلطنة الصلاحية، فقد ترك ابنه الملك الكامل والي مصر في عهده يواجه القوات الفرنجية التي أسقطت خط الدفاع الأول عن مدينة دمياط، فبعد سقوط برج السلسلة حاول الأمير الكامل حاكم مصر إعاقة تقدم الصليبيين، فنصب الملك الكامل جسرًا عظيمًا، امتنعوا به من سلوك النيل، ثم إنهم قاتلوا عليه أيضًا قتالًا شديدًا، كثيرًا متتابعًا حتى قطعوه، فلما قطع أخذ الملك الكامل عدة مراكب كبار، وملأها وخرقها وغرقها في النيل، فمنعت المراكب من سلوكه.

أحاط الفرنج بدمياط، وقاتلوها برًا وبحرًا، وعملوا عليهم خندقًا يمنعهم ممن يريدهم من المسلمين، وهذه كانت عادتهم، وأداموا القتال، واشتد الأمر على أهلها، وتعذرت عليهم الأقوات وغيرها، وسئموا القتال وملازمته؛ لأن الفرنج كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم، وليس بدمياط من الكثرة ما يجعلون القتال بينهم مناوبة، ومع هذا فقد صبروا صبرًا لم يسمع بمثله، وكثر القتل فيهم، والجراح، والموت، والأمراض، ودام الحصار عليهم إلى السابع والعشرين من شعبان سنة (616هـ/1219م)، فعجز من بقي من أهلها عن الحفظ لقلتهم، وتعذر القوت عندهم، فسلموا البلد إلى الفرنج في هذا التاريخ بالأمان، فخرج منهم قوم وأقام آخرون؛ لعجزهم عن الحركة، فتفرقوا .[18]

وبعد بسط سيطرة الفرنج على كامل مدينة دمياط، جرت مراسلات من قبل الملك الكامل في الصلح، والصلح هنا يقع بين طرفين، الأول منتصر ويسيطر على الأرض، ولدية جيش قوي قادر على التقدم وهم الفرنج، والطرف الآخر هو الملك الكامل ابن العادل، الذي لم يملك من القوة الكثير، في حين كانت علاقته مع إخوته وورثة سلطنة أبية العادل تشوبها الصراعات، ويذكر لنا ابن الأثير أن الملك الكامل كتب إلى أخويه المعظم صاحب دمشق، والملك الأشرف موسى بن العادل، صاحب ديار الجزيرة وأرمينية وغيرهما يستجدهما، ويحثهما على الحضور بأنفسهما، فإن لم يكن فبإرسال العساكر إليه، فسار صاحب دمشق إلى الأشرف بنفسه بحران، فرآه مشغولا عن إنجادهم بما دهمه من اختلاف الكلمة عليه، وزوال الطاعة عن كثير ممن كان يطيعه، وذلك سنة (615هـ/1218م)[19].

كان الموقف العسكري ساكنًا على الجانبين، فالسلطان ينتظر مزيدًا من القوات، ويسيطر عليه التردد، والصليبيون منقسمون على أنفسهم، تحيرهم تصرفات بلاجيوس[20]، وتفرقهم أهواءهم، وطال الحصار على هذا الحال ستة عشر شهرًا واثنين وعشرين يومًا، وفي أثناء الحصار، ظهرت الخصال السياسية السلبية للسلطان الكامل، وربما كان أبوه السلطان العادل قد أوصاه بمهادنة الصليبيين بدلًا من محاربتهم، وربما نصحه بأن طريق المفاوضات أكثر أمنًا من طريق الجهاد.[21]

---

(17) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج10/ ص: 304)؛ وابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (ج5/ ص: 399).

(18) المرجع السابق، (ج10/ ص: 307).

(19) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج10/ ص: 308).

(20) بلاجيوس: هو الكاردينال البرتغالي، الذي أرسله هنريوس الثالث، لكون لمندوب البابوي في الحملة الصليبية الخامسة، حيث كان رجلًا ذو طاقة عالية، لكنه كان مغرمًا بنفسه، وضيق الأفق، وعنيد بشكل مثير. ينظر: قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، المجلي الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978م، (ص: 60).

(21) قاسم، ماهية الحروب الصليبية، (ص: 45).

بدأ السلطان الكامل يفكر في المفاوضات مع الصليبيين منذ شهر فبراير 1219م، وتم إرسال رسول إلى الملك (حنا دي برين (يطلب إرسال سفراء لوضع شروط السلام، وبذل لهم تسليم بيت المقدس، وعسقلان، وطبرية، وصيدا، وجبلة، واللاذقية، وجميع ما فتحه صلاح الدين؛ ليسلموا دمياط، فلم يرضوا، وهكذا قرر الكامل أن يشتري السلام بالتنازل عن كل ما فتحه صلاح الدين بدماء الشهداء، وجهاد السنين، ولم يكن الأمر بالنسبة له أكثر من مجرد صفقة، يتنازل فيها عن القدس وغيرها، مقابل رحيل الصليبيين عن دمياط؛ ليتحقق له السلام، الذي يمكنه من مواصلة نضاله ضد الأيوبيين الآخرين، ويبدوا أن الأيوبيين قد اعتقدوا بداية أن التنازل للصليبيين عن القدس وسائر فتوح صلاح الدين باستثناء الكرك، والشوبك، قد يكون كافياً للوصول إلى اتفاق، وذلك نظرًا لأهمية القدس للصليبيين.[22]

ثانيًا: مفاوضات الصلح بين الكامل والفرنج على القدس أثناء معارك مدينة دمياط

اتبع الكامل استراتيجية انهزامية في طلب الصلح، ونجد هنا أن الكامل وضع أولوية الحفاظ على مصر، في مقابل تسليم كل إنجازات صلاح الدين العسكرية، والجدير بالذكر أن الكامل كان من أكثر ورثة الملك العادل حظوظًا في حكم مصر، وهي الأكثر مساحة، ومن يمتلكها يكون أكثر حظوظًا في السيطرة على بقية إرث المملكة الأيوبية، فقد بذل لهم تسليم البيت المقدس، وعسقلان، وطبرية، وصيدا، وجبلة، واللاذقية، وجميع ما فتحه صلاح الدين من الفرنج بالساحل، عدا الكرك؛ ليسلموا دمياط، فلم يرضوا، وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار، عوضًا عن تخريب القدس؛ ليعمروه بها[23]، فلم يتم بينهم أمر، وقالوا: لا بد من الكرك، فبينما الأمر في هذا، وهم يمتنعون.[24]

وقد وقع للكامل برهان على غدر الفرنج التفاوضي، فقد راسل أهل دمياط الفرنج بعد أن اشتد عليهم الحصار، وصار فيهم الوباء والجوع، على أن يسلموا إليهم البلد، ويخرجوا منها بأموالهم وأهلهم، واجتمعوا وحلفوهم على ذلك، فركبوا في المراكب، وزحفوا في البر والبحر، وفتح لهم أهل دمياط الأبواب، فدخلوا ورفعوا أعلامهم على السور، وغدروا بأهل دمياط، ووضعوا فيهم السيف قتلًا وأسرًا[25]، وهذا من شأنه أن يعطي للكامل الحقيقة عن نوايا الفرنج.

ونستنتج من التعنت الفرنجي في هذا الأمر التفاوضي الذي كان لصالحهم بشكل كبير، أن الغرور في المزيد منعهم من ذلك الأمر، فقد كان الطلب الذي عطل المفاوضات هو حصن الكرك، والفدية المالية، والتي رفضها الكامل، وقد تشاور الفرنج في أمر هذا العرض، وقبله (حنا دي برين) القائد الفعلي للحملة، وأيده فريق من العسكر، ولكن المندوب الكنسي، ونائب البابا (بلاجيوس) رفضا العرض، وساندهم في الرفض فرسان الإسبتارية.[26]

ثالثًا: تحرير دمياط من الفرنج

في بداية سنة (618هـ/1221) قرر الملك الكامل استنجاد أخوية، الأشرف والمعظم عيسى، فأرسل إليهم في المعونة على الفرنج، فسار صاحب دمشق المعظم إلى الأشرف يحثه على المسير، ففعل، وسار إلى دمشق فيمن معه

(22) المرجع السابق، (ص: 45).

(23) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج10/ ص: 307).

(24) المرجع السابق، (ج10/ ص: 308).

(25) ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت ٨٧٤هـ)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، عدد الأجزاء: 16، (ج6/ ص: 238).

(26) ابن تغري، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (ج6/ ص: 239).

من العساكر، وأمر الباقين باللحاق به إلى دمشق، وأقام بها ينتظرهم، فأشار عليه بعض أمرائه وخواصه بإنفاذ العساكر، والعود إلى بلاده؛ خوفًا من اختلاف يحدث بعده، فلم يقبل قولهم، وقال قد خرجت للجهاد، ولا بد من إتمام ذلك العزم، فسار إلى مصر، وهكذا فعل المعظم عيسى، واجتمعت كلمة المسلمين، وجرى توحيد جهودهم على قتال الفرنج .[27]

وفي هذ الوقت، تمكنت شواني المسلمين من قطع الطريق على الإمدادات الفرنجية من عكا لدمياط، الأمر الذي أضعف القوات الفرنجية المحتلة لدمياط[28]، وقد كان الكامل قد أمر ببناء المنصورة بقرب من دمياط؛ لتكون معسكرًا للجيش الإسلامي عند مفترق البحر من جهة دمياط.[29]

إضافة إلى ذلك: أدت المشاحنات بين قائد الحملة الفعلي (حنا دي برين)، ونائب البابا (بلاجيوس) إلى دفع الأول لمغادرة دمياط إلى عكا، وترك القيادة للأخير، وقد وصل بعد أن ترأس (بلاجيوس) القيادة دعمًا فرنجيًا قادمًا من بافاريا[30]، فتشجع (بلاجيوس)، وقرر في يونيو 1221م الزحف باتجاه القاهرة، وأرسل إلى الملك (حنا دي برين) في عكا يطلب منه الحضور للمشاركة في هذا الغزو، وقد وافق على ذلك؛ خوفًا من غضب الكنيسة، واتهامه بعرقلة الحملة .[31]

أما فيما يخص المعسكر الإسلامي، فقد طرح الكامل من جديد بنود الصلح، وهي كما ذكرناها في السابق، إلا أن الفرنج رفضوا مرة أخرى، وتمسكوا ببند التعويض، وحصن الكرك، والشوبك[32]، وهذا الأمر من طرف الكامل عمل على تشجيع الفرنج على مواصلة غزوهم للقاهرة، حتى بعد ،ن وصل الجيش الشامي والمدد للكامل .[33]

وقد قرر الفرنج استمرار الهجوم، وقد أدى اعتزازهم بأنفسهم إلى وقوعهم بشر أعمالهم، إذ أنهم لم يمونوا الجيش بالتموين الكافي أثناء زحفهم باتجاه القاهرة، وافتقد الإفرنج الأقوات؛ ظنًا بأنهم غالبون على السواد وميرته[34] بأيديهم، فبدا لهم ما لم يحتسبوا .[35]

وأمام مراهقة الكامل التفاوضية، وضعف حنكته في هذا الأمر، انقلب الأمر لبصيرة عسكرية، فبعد أن كان في أصعب مواقفه، تبدل الحال إلى غلبة، فمع تقدم الجيش الفرنجي باتجاه العمق المصري، من خلال البر والنيل، أمر الكامل بعض السفن الإسلامية بأن تدخل في مجرى النيل، عبر الالتفاف داخل البحر الأبيض المتوسط، فأصبحت خلف مراكب وسفن الإفرنج المتقدمة، وأثناء التقدم فتح الجيش الإسلامي مجرى النيل عليهم أثناء فيضانه، فركبها الماء، ولم يبق لهم إلا مسلك ضيق، ونصب الكامل الجسور عند أشمون، فعبرت العساكر عليها، وملكوا ذلك المسلك، وحالوا بين الإفرنج وبين دمياط، ووصل إليهم مركب مشحون بالمدد من الميرة والسلاح، ومعه حراقات، فخرجت عليها شواني المسلمين، وهي في تلك الحال، فغنموها بما فيها، واشتد الحال عليهم في معسكرهم،

---

(27) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج10/ ص: 308).

(28) ابن تغري، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (ج6/ ص: 241).

(29) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (ج5/ ص: 399).

(30) بافاريا: أحد أقاليم ألمانيا.

(31) غنيم، إسمنت، الدولة الأيوبية والصليبيون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990م، (ص: 79).

(32) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (ج5/ ص: 404).

(33) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، (ج4/ ص: 94).

(34) السواد وميرته: ثمار الارض الزراعية وغلالها.

(35) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج10/ ص: 308)؛ وابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (ج5/ ص: 399).

وأحاطت بهم عساكر المسلمين وهم في تلك الحال، يقاتلونهم، ويتخطفونهم من كل جانب، فأحرقوا خيامهم ومجانقهم، وأرادوا الاستماتة في العود، فرأوا ما حال بينهم وبينها من الرجال.[36]

ونتيجة هذا الالتفاف، أصبح الجيش الفرنجي في قبضة الجيوش الإسلامية، فاستأمنوا إلى الكامل والأشرف على تسليم دمياط من غير عوض، وبينما هم في ذلك، وصل المعظم صاحب دمشق من جهة دمياط، فازدادوا وهنًا وخذلانًا، وسلموا دمياط منتصف سنة ثمان عشرة، وأعطوا عشرين ملكًا منهم رهنًا عليها، وأرسلوا الأقسة والرهبان منهم إلى دمياط، فسلموها للمسلمين، وكان يومًا مشهودًا، ووصلهم بعد تسليمها مدد من وراء البحر، فلم يغن عنهم، ودخلها المسلمون، كذلك سلم الكامل بعض أبنائه للصليبيين مقابل ملوكهم.[37]

رابعًا: انتهاء الحملة الصلبية الخامسة بصلح بين الكامل والفرنج

وبهذا انتهت الحملة الفرنجية الخامسة على دمياط بفشل ذريع، وبالوقوف على ما حققه المسلمون والملك الكامل، فقد كان بمقدار الأيوبيين القتال، وهذا ما كان في خاطر الملك المعظم عيسى والأشرف، فاستشارهم الملك الكامل، فأشاروا: "بأن لا يؤمنهم، ويأخذهم أخذًا باليد، فإنهم قد صاروا في قبضته، وهم جمهور أهل الشرك، وأنه إذا فعل ذلك أخذ منهم دمياط، وجميع ما بقى لهم من البلاد الساحلية، فلم ير السلطان الملك الكامل ذلك مصلحة"[38]، وقال: "إن هؤلاء ليسوا جميع الفرنج، وإذا أبدناهم لا نقدر على أخذ دمياط إلا بمطاولة وحروب كثيرة مدة، ويسمع ملوك ما وراء البحر من الفرنج وباباهم بما يجرى على الفرنج، فيقدم أضعاف هؤلاء، وتعود للحرب خدعة، وقد ضجرت العساكر من الحرب وكلت".[39]

وأمر الكامل بتوقيع الصلح، وأخذ بذلك القيادة الفرنجية للجيش، بما فيهم (حنا دي برين)، و(بلاجيوس)، والعديد من الرهائن؛ لتحقيق أمر الانسحاب من دمياط، ولكن هذا الأمر كان في غاية الخسارة التفاوضية، فقد وقع الجيش الصليبي بين فكي كماشة، وفي جهل جغرافي بحال المنطقة، فقد عجزوا عن العودة للخلف، وكذلك القتال في بيئة موحلة، وحاصرتهم المياه من عدة جهات.[40]

فمن الخلف نجد أن السفن الإسلامية قطعت خط الرجوع للقوات الصليبية، ومن جهة البر الشمالي والجنوبي لم يعد بمقدارهم القتال بسبب ضحالة المياه، وحصار الجيش الإسلامي البري لهم، الأمر الذي كان من الممكن المقايضة على شروط الصلح في صالح المسلمين، يكون ثمنها كبير على الصليبيين، وخيرها أكثر على المسلمين، وقد استعجل الكامل في أمر جلاء القوات الصليبية عن دمياط، وعقد معهم صلحًا بسيطًا، جاء في بندين، حينما كان ملوك الحملة في صحبته، فقد اتفق على هدنة مدتها ثماني سنوات، بالإضافة إلى عملية تبادل للأسرى من كلا الطرفين.[41]

وما كاد يتم توقيع شروط الصلح وإقرار الهدنة، حتى وصلت سفن صقلية نجدة للصليبيين، تحت قيادة و(التربالیار) متولي) الدي وان) بصقلية، وهي النجدة التي انتظرها (بلاجيوس)، وقد وصلت تلك النجدة في وقت لا تستطيع أن تقوم فيه بأي عمل عسكري.

---

(36) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون (ج5/ ص: 404).

(37) المرجع السابق، (ج5/ ص: 405).

(38) ابن واصل:، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، (ج4/ ص: 97).

(39) المرجع السابق، (ج4/ ص: 97).

(40) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج11/ ص: 331).

(41) ديورانت، قصة الحضارة، (ج15/ ص: 56).

حقيقة كان من الممكن أن يكسر قائد هذه القوة الهدنة المعقودة؛ لأن الصليبيين لا يحفظون للعهود حرمة، ولكن وجود الرهائن من ملوك الصليبيين لدى الملك الكامل أخاف الصليبيين من عواقب ذلك، فضلاً عن أن الملك الكامل كان سيد الموقف، وأن معظم الجيش الصليبي في مرمى الجيش الإسلامي، وهكذا فشلت الحملة الصليبية الخامسة، بعد أن كان متوقعًا لها النجاح، وعاد أفرادها إلى بلادهم بعد أن قضوا في دمياط، وعلى شاطئها الغربي والشرقي ثلاث سنوات وأربعة أشهر وتسعة عشر يومًا، رفضوا خلالها أربعة عروض باستعادة فلسطين، مقابل الجلاء عن مصر، فاضطروا أخيرًا إلى الجلاء دون مقابل، وكما قال ابن الأثير: "إن الله تعالى أعطى المسلمين ظفرًا لم يكن في حسابهم، فإنهم كانت غاية أمانيهم أن يسلموا البلاد التي أخذت منهم بالشام؛ ليعيدوا دمياط، فرزقهم الله إعادة دمياط، وبقيت البلاد بأيديهم على حالها".[42]

المبحث الثالث: الحملة الصليبية السادسة بقيادة فردريك الثاني ومسالة المساومة على القدس

على إثر فشل الحملة الصليبية الخامسة في تحقيق مقاصدها من احتلال مصر، والزحف باتجاه بيت المقدس، عملت الكنيسة على حث الغرب على حملة جديدة باتجاه الاراضي الإسلامية في مصر والشام، وكان في تلك الفترة يحكم الكامل ابن الملك العادل، وهو الأقوى بين إخوته، فقد آلت الأمور إلى صراع عنيف بين أبناء الملك العادل؛ للسيطرة على مقاليد الحكم، وحاول كل منهم أن يسيطر على أكثر ما يستطيع من إرث أبيه، والجدير بالذكر هنا قبيل التطرق للحملة الصليبية السادسة، أن الملك الكامل أمر بتخريب بيت المقدس بأسوارها وقلاعها، خوفًا من تملكها من قبل الصليبيين، وهذا الأمر كان أثناء احتلال الفرنج لدمياط، حتى أن مفاوضات الكامل معهم تعطلت بسبب طلبهم تعويضًا عما صار بها من تخريب قبيل تسليمها، بمقتضى شروط الصلح التي لم تتم.

وقد تعلل كل من الكامل والمعظم عيسى، بأن الشام قد خلا من العساكر، فلو أخذ الفرنج القدس حكموا على الشام جميعه، وكان بالقدس أخوه العزيز عثمان، فكتب إليهما المعظم بخرابه، فتوقفا، وقالا: "نحن نحفظه"، فكتب إليهما المعظم ثانيًا: "لو أخذوه لقتلوا كل من فيه، وحكموا على الشام وبلاد الإسلام، فألجأت الضرورة إلى خرابه". فشرعوا في خراب السور والقلاع والأبراج .[43]

وهنا نجد أن القدس أصبحت خارج حسابات ورثة الملك العادل بتعليلات عسكرية وسياسية، وكان أبناء العادل: الكامل، والأشرف، والمعظم، لما توفي أبوهم قد اشتغل كل واحد منهم بأعماله التي عهد له أبوه، وكان الأشرف والمعظم يرجعان إلى الكامل، وفي طاعته، ثم تغلب المعظم عيسى على صاحب حماة: الناصر بن المنصور بن المظفر، وزحف سنة (619هـ/1222م)، أي بعد ثلاث سنوات من تحرير دمياط إلى حماة، فحاصرها وامتنعت عليه، فسار إلى سلمية، والمعرة من أعمالها، فملكها، وبعث إليه الكامل ينكر عليه فعل ذلك، ويطالبه بالتراجع عما فعل، فامتثل وأذعن، وقد آلت الأمور إلى صدام بين الإخوة، فقد استنجد كل منهم بخواصهم وببعض القادة، وكان للكامل أن يستنجد بالفرنج، فراسل الملك (فريدرك) ملك ألمانيا؛ لمعاونته ضد خصومة.[44]

وهنا كانت المفارقة حيث بدأ البيت الايوبي يستعين بالاحتلال الصليبي لمحافظة على كرسي الحكم، أما فيما يخص الجانب الآخر، وهم الفرنج، فقد كان الأمر في أوروبا ليس على ثبات أيضًا، فقد كان الإمبراطور (فريدريك) وعد البابا (هونوريوس الثالث) بأنه سيتوجه إلى بلاد المشرق الإسلامي في حملة صليبية سنة (622هـ/1225م)، زحف

(42) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج11/ ص: 331).

(43) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (ج6/ ص: 245).

(44) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (ج5/ ص: 405).

فردريك الثاني[45] وهو على رأس الحملة الصليبية السادسة، ولما وصل إلى فلسطين، لم يلق أية معونة ممن فيها من المسيحيين الصالحين، فقد أعرض هؤلاء عن رجل مطرود من الكنيسة المسيحية، فلما رأى الإمبراطور ما فعلوا، أرسل رسله إلى الملك الكامل، الذي كان بينه وبينه مراسلات، وتمخضت عن اتفاقية تعاون عسكري، بدون بنود صريحة .[46]

استقبل الإمبراطور فردريك الثاني رسول الملك الكامل أحسن استقبال، وأخبره بعرض الكامل، وبالطبع رحب فردريك بهذا العرض، منتهزًا فرصة الخلافات بين الكامل وإخوته؛ كي يحصل على بيت المقدس بدون حرب، خاصة وأن البابوية كانت في ذلك الوقت تلح عليه في الخروج على رأس حملة صليبية إلى الشرق لاستعادة بيت المقدس؛ لذلك رد الإمبراطور على سفارة الملك الكامل محمد بسفارة مماثلة. تحمل هدايا وتحف إلى الكامل محمد، وقوبل رسول الإمبراطور بالترحاب والتشريف، من الإسكندرية وحتى القاهرة، حيث استقبله السلطان بنفسه، وأكرمه إكرامًا زائدًا، كما جهز السلطان هدية إلى ملك الفرنج، فيها من تحف الهند، واليمن، والعراق، والشام، ومصر، والعجم، ما قيمته أضعاف ما سيره الإمبراطور[47].

ولقد كان جيش فريدرك الثاني صغيرًا، قوامه ستمائة فارس فقط، وأسطول هزيل، فتأمل بمنحه القدس، ولم ينس أنه خرج من بلاده محرومًا من الكنيسة، وأنه اعتمد وعود الكامل له بإعطاء بيت المقدس؛ لذلك لم يحضر جيشًا قويًا، وقد انتهت الفتنة بين الملك الكامل والمعظم عيسى بموت الثاني، ومطالبة الأول بتركة أخيه، إلا أن الملك فريدرك الثاني أصر على ما كان بينه وبين الكامل من أمر التسليم، فبعد وصوله إلى عكا، بعث فردريك برسالة إلى الكامل يطالبه فيها بتنفيذ ما تم الاتفاق عليه، جاء فيها: "الملك يقول لك: كان الجيد والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء ولا أجيء إليهم، والآن فقد كنتم بذلتم لنائبي في زمن حصار دمياط الساحل كله، وإطلاق الحقوق بالإسكندرية، وما فعلنا، وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم، وأعادوا إليكم، وما نائبي إن هو إلا أقل غلماني، فلا أقل من إعطائي ما كنتم بذلتموه له .[48]

أولًا: المفاوضات الأيوبية الفرنجية أثناء الحملة الصليبية السادسة

بعد أن وصلت الحملة الفرنجية إلى عكا، أرسل فريدرك الثاني مبعوثًا للكامل، يطالب فيه بما كان بينه وبين الإمبراطور، إلا أن الظروف السياسية بين الإخوة لم تكن مستتبة، فأجل الكامل هذه المحادثات، وحمل المبعوث بالكثير من الهدايا الثمينة وأكرمه .[49]

وفي هذه الأثناء، تحرك المبعوث للمعظم عيسى، وهو أخو الملك الكامل، يطالبه بتسليم ما فتحه صلاح الدين، إلا أن الوضع اختلف عما كان لدي الكامل، فقد هدد المعظم، وقال للمبعوث: "قل لصاحبك ما أنا مثل

---

(45) فردريك الثاني: امبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، خلال الفترة (616-636هـ/1220-1250م). ينظر: رانسيمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة: نور الدين خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الأولى، 1994م، (ج3/ ص: 198).

(46) ديورانت، قصة الحضارة، (ج15/ ص: 56).

(47) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (ت: ٨٤٥هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩م، عدد الأجزاء: ٨، (ص: 259-260).

(48) المرجع السابق، (ج1/ ص: 351).

(49) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قِزأُوغلي بن عبد الله المعروف بـ (سبط ابن الجوزي) (٥٨١ - ٦٥٤هـ)، تحقيق وتعليق: محمد بركات، وآخرون، دار الرسالة العالمية، دمشق، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، عدد الأجزاء: ٢٣، (ج8/ ص: 424).

الغير، وما له عندي سوى السيف"، وبادر الملك المعظم بتحضير الجيش الإسلامي لمواجهة الصليبيين، إلا أنه فارق الحياة قبيل أي اشتباك مع الجيوش الصليبية.[50]

ومع وفاة المعظم، خليت الساحة السياسية للكامل، وأصبح الأقوى، وانهار التحالف بين شركاء المعظم، وقد تطلع الكامل لضم الأراضي التي كان يحكمها أخوه، بعد أن أصبحت في قبضة ابنه الأصغر سنًا[51]، وقد استغل الفِرنج هذا الموقف، وهاجموا من البحر وعكا صيدا، وكانت مناصفة لهم وللمسلمين، فاستولَوا عليها وحصنوها، وتم لهم ذلك، وقويت شوكتهم[52]، وكان الملك الناصر داود صغير السن، وهو أضعف من أن يجابه عمه، والفرنج في حماية إرث أبيه، فاستنجد بعمه الأشرف ضد الكامل، إلا أن الأمور انتهت باقتسام أملاك المعظم بين الأخوين، فسيطر الكامل على القدس ونابلس، وسيطر الأشرف على دمشق.[53]

وبذلك انتهت حجة الكامل في استنجاده بالفرنجة، إلا أن الملك فريدرك الثاني طلب من الكامل الشرط الذي جاء من أجله، فكان الكامل في حيرة من أمره، وأحس فردريك الثاني أنه يمكن أن يكون جاء بالحملة دون تحقيق مبتغاه، وهكذا، لم يبق أمام فردريك الثاني سوى سلاح واحد، هو سلاح المفاوضة والاستعطاف، واستخدام كل الوسائل الدبلوماسية؛ للوصول إلى غرضه، والحصول على بيت المقدس.[54]

إن موقف الكامل المتردد، زاد من إحراج فردريك في بلاد الشام، لا سيما أنه كان مترددًا أصلًا في الخروج على رأس حملة صليبية، مما جعل البابا يغضب، ويفرض عليه حرمانًا من الكنيسة[55]، وربما أن عرض الكامل بتسليمه القدس مقابل مساعدته ضد أخيه المعظم كان بمثابة طوق للنجاة بالنسبة له؛ للتخلص من الضغوط الشديدة التي مورست عليه للقيام بهذه الحملة، إذ وصله رسول الكامل وهو يستعد للقيام بالحملة.[56]

لذا يبدو من الواضح أنه قد عول كثيرًا على هذا الوعد؛ ليعيد له هيبته في الغرب، رغم أنه لم يكتف به وحده، ولعل ما يدلل على هذا: أنه لم يستقدم معه جيشًا كبيرًا قادرًا على الدخول في صراع مع المسلمين[57]، هذا بالإضافة إلى أنه لا يمكن له أن يعول كثيرًا على صليبي الشام؛ نظرًا لما كانوا يعانونه من ضعف وتفكك، والإمبراطور بالنسبة لهم أمير مغضوب عليه من البابا، ومحروم ومطرود من رحمة الكنيسة، وهو ما يفسره رفضهم للتعاون معه بعد وصوله.[58]

---

(50) الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: بيرند راتكه وآخرون، عيسى البابي الحلبي، 1982م، عدد الأجزاء: 9، (ج7/ ص: 284).

(51) المرجع السابق، (ج7/ ص: 292).

(52) الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، عدد الأجزاء: 52، (ج45/ ص: 30).

(53) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، (1ج/ ص: 266).

(54) رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، (ج3 / ص: 326 – 327).

(55) عمران، الحروب الصليبية، (ص: 288- 299).

(56) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، (ج1 / ص: 35).

(57) رانسيمان، الحروب الصليبية، (ج3 / ص: 324).

(58) عمران، الحروب الصليبية، (ص: 291).

ولعل ما ضاعف من صعوبة وضع الإمبراطور بعد وصوله إلى الشام، أن البابا كان قد راسل بعض الأمراء الأيوبيين، ومنهم الكامل، يطلب منهم عدم تسليم القدس للإمبراطور[59]، كما وصلت أخبار للإمبراطور تشير إلى اعتداء البابا على ممتلكاته في الغرب.[60]

حيث وصل به الأمر إلى أن يتودد إلى الكامل، وقد بعث إليه برسالة تتضمن هذا التودد، حيث قال: "أنا عتيقك وأسيرك، وأنت تعلم أني أكبر ملوك البحر، وأنت كاتبتني بالمجيء، وقد علم البابا وسائر ملوك البحر باهتمامي وطلوعي، فإن أنا رجعت خائبًا، انكسرت حرمتي بينهم، وهذه القدس، فهي أصل اعتقادهم وحجِهم، والمسلمون قد أخربوها، وليس لها دَخلٌ طائل، فإن رأى السلطان- أعزَه الله- أن ينعِمَ عليَ بقصبةِ البلدِ، والزيادة تكون صَدَقَة منه، وترتفع رأسي بين الملوك، وإن شاء السلطان أن يكشِفَ عن محصولها، وأحمل أنا مقدارَه إلى خزانته فعلت، فلما سَمِعَ الكامل ذلك، مالت نفسه، وجاوبه أجوبة مغلظة، والمعنى فيها نعم".[61]

ويلاحظ أن أسلوب الاستعطاف هذا يحمل في ثناياه تهديدًا مبطناً باستخدام القوة، فقد جاء في إحدى رسائله للكامل: " أنا أخوك، واحترام دين المسلمين احترامي لدين المسيح، وأنا وريث مملكة القدس، وقد جئت لأضع يدي عليها، ولا أروم أن أنازعك ملكك، فلنتجنب إراقة الدماء".[62]

وعلى الرغم مما يظهر من أن رسالة فردريك هذه هي رسالة استعطاف للكامل، إلا أنها تحمل في ثناياها نبرة التهديد المبطن، إذ يوضح الإمبراطور فيها أن تسليمه القدس فقط هو الكفيل بتجنيب الطرفين الحرب وإراقة الدماء، كما يلاحظ أيضا أن الإمبراطور استمر في استخدام دبلوماسية الاستعطاف، مع تبطين التهديد، في محاولة الضغط على الكامل وتخويفه، من خلال محاولة الظهور بمظهر القوة المتزامنة، مع الاستعداد العسكري، إذ تشير المصادر إلى قيامه خلال المفاوضات في عمارة مدينة صيدا بعد أن استولى عليها، على الرغم من أنها كانت مناصفة بين المسلمين والصليبيين، وأن سورها يجب أن يبقى خراباً، لا يجوز لأي من الطرفين القيام بتعميره، بموجب هدنة سابقة.[63]

ويلاحظ هنا أن الإمبراطور قد ظل مصرًا خلال هذه المفاوضات على موقفه القاضي بأن ينفذ الكامل له الشروط التي تم الاتفاق عليه، ويوضح ابن واصل هذا الموقف بالقول: "وأبى أن يرجع إلى بلاده، إلا بما وقع الشرط عليه من تسليم القدس إليه"[64]، وهو ما كان الكامل قد امتنع عن تنفيذه.[65]

أما الكامل فبالرغم من ترحيبه بالإمبراطور، ورده الرقيق على رسالته، إلا أنه أخبره صراحة بأنه لم يعد في حاجة إلى هذه المناصرة ضد أخيه المعظم، وأنه كان سيعطيه القدس ثمناً لهذه المناصرة لو أنها قد تمت، أما وأن الظروف قد تبدلت بموت المعظم، فإنه لا يستطيع التفريط في بيت القدس.[66]

بالإضافة إلى ذلك، فعلى الرغم من أن الكامل قد أعلن للإمبراطور بأنه لا ينفذ ما كان قد وعد به، وأنه لن يسلم القدس، فإنه على ما يبدو قد بدأ يخشى قيام الصليبيين بعمل عسكري ضده، ولا سيما بعد قيام الإمبراطور

(59) عاشور، سعيد عبد الفتاح، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، مصر، 1996م، (ص: 105).
(60) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، (ج1/ ص: 35).
(61) الذهبي، تاريخ الإسلام، (ج45/ ص: 30).
(62) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، (ج4 / ص: 243).
(63) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج10 / ص: 478).
(64) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، (ج4 / ص: 241).
(65) المرجع السابق، (ج4 / ص: 241).
(66) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، (ج4/ص: 234)؛ وعاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، (ص:107).

بتحصين صيدا، ولعل خوف الكامل هذا ناجم أيضًا عن استمرار النزاع بينه وبين ابن أخيه: الناصر داود بن المعظم في دمشق، حيث استمر الناصر في مناصبة الكامل العداء، وهو ما أدى بطبيعة الحال إلى زيادة متاعب الكامل، ومخاوفه من الدخول في صراع جديد غير مضمون النتائج.

وأخيرًا، لا بد من الإشارة إلى تأثير الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ[67]، الذي سبق وأن حمل عرض الكامل إلى الإمبراطور بمساعدته ضد أخيه المعظم، وكان يحمل رسائله إلى الإمبراطور خلال المفاوضات، إذ كان رأي الأمير يتمثل في دعوة الكامل إلى الالتزام بما وعد، وأن عليه تسليم القدس إلى الإمبراطور.[68]

وما زلت المفاوضات جارية بين الملك الكامل الأيوبي والإمبراطور فردريك الثاني، ولم يكن أي منهما في وضع يسمح له باللجوء إلى الحرب؛ فقد كان الكامل كارهًا للحرب طوال ولايته، إلا إذا كانت بين أقاربه وإخوته، ولم يكن في وضع سياسي أو عسكري يسمح له باللجوء إلى الحرب، كما أن فردريك لم يكن في وضع يسمح له بأن يسعى إلى إحراز انتصار عسكري، كما أنه في علاقته مع السلطان كان ملتزمًا بالعمل الدبلوماسي، بدلًا من الحل العسكري، وكان على علم تام بكافة التفاصيل عن التطورات الجارية في بلاد الشام، بفضل علاقته مع الكامل منذ سنة.

ثم لم تلبث الاستعطافات إلا أن آتت أكلها، وأفلحت في التأثير على الكامل، الذي أحس بموقف فردريك، هذا بالإضافة إلى ما قام به فردريك الثاني من تحصين يافا، مما جعل الكامل يخشى اتفاق الإمبراطور وبقية الجموع الصليبية؛ للقيام بعمل حربي ضده؛ لذلك أعاد المفاوضات من جديد، والتي انتهت بتوقيع معاهدة يافا في فبراير سنة 1229هـ/226م، بين الكامل محمد والإمبراطور فردريك الثاني، على أن يأخذ الإمبراطور القدس، بشرط أن تظل على ما هي عليه من الخراب، ولا يجدد سورها، وأن تكون سائر قرى القدس للمسلمين، لا حكم فيها للفرنج، وأن الحرم بما حوله من الصخرة والمسجد الأقصى يكون بأيدي المسلمين، لا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط، ويتولاه قوم من المسلمين، وتقوم فيه شعائر الإسلام، من الآذان والصلاة، وأن تكون القرى التي فيما بين عكا وبين يافا وبين اللد وبيت المقدس بأيدي الفرنج، دون ما عداها من قرى القدس، وأن يكون أمد هذه المعاهدة عشر سنوات، وأن يطلق كل من الجانبين أسراهم .[69]

---

(67) فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ: أو فخر الدين بن شيخ الشيوخ قائد عسكري مصري، وكان أحد الأمراء المهرة الصالحين في عهد الملك الكامل، وازداد نفوذه في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، و عهد شجرة الدر فكان قائد للجيش المصري في ذلك الوقت، بعد تولى الصالح أيوب حكم مصر، وبعد عزل العادل، أفرج الصالح عن فخر الدين، وعندما جاءته الأخبار من ملك صقلية بمجيء الحملة الصليبية السابعة وتوجهها إلى دمياط، عين فخر الدين قائد للجيوش المحاربة ضد الصليبيين، كان فخر الدين خير قائد لتلك الجيوش، وكان بالفعل قد حشد دمياط بأفضل تشكيل من القوات والعدد، ولكن تأخر رد الصالح عليه ببدء الهجوم أصابه بالقلق، فقرر الانسحاب بجنوده إلى أشموم طناح للاطمئنان على الصالح نجم الدين، أو المشاركة في اختيار الحاكم الجديد لو كان الصالح قد مات، خصوصا أن الصالح كانت قد أبرحته العلة في الفراش وكان تقريبًا سيموت. ثم بعد فترة دل أحد الأهالي الخائنين الصليبيين على سبيل الدخول للمنصورة، وكانت عبارة عن مخاضة بحر أشموم مقابل مال قليل، وبالفعل دخلت بعض القوات فقط إلى المنصورة، وتوجهوا إلى قصر المنصورة، وكانت به شجرة الدر، وفاجئوا كل من بالقصر، وخرج فخر الدين من الحمام مذهولًا وهو لا يعلم ماذا يحدث، ففوجئ بالقوات الصليبية تهاجم المكان، فأسرع بمحاربتهم إلى أن قتلوه، واستشهد في 1250م. ينظر: سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، (ج22/ ص: 4110).

(68) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، (ج1 / ص: 353).

(69) المقريزي: السلوك لمعرفة دول اللوك، (ج1 / ص: 354)؛ و العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى (ت: ٨٥٥هـ)، (ج4 / ص: 2).

ثانيًا: بنود اتفاقية الصلح بين الكامل وفردريك الثاني، صلح يافا (626هـ/ 1229م)

1. تسليم البيت المقدس إلى الفرنج، على أن يبقى خرابًا، ولا يجدد سوره، وأن لا يكون للفرنج شيء من ظاهره البتة.
2. جميع القرى التابعة للقدس تبقى للمسلمين، ولا يدخلها الفرنج إلا للزيارة فقط، وللمسلمين أو عليها يكون مقامة (البيرة) من عمل القدس من شماليه.
3. يكون الحرم الشريف بما حوله من الصخرة المقدسة والمسجد الاقصى بأيدي المسلمين، وشعار المسلمين فيه ظاهر، ولا يدخلها الفرنج إلا للزيارة فقط، ويتولاه أقوام المسلمين.
4. تكون الناصرة وبيت لحم واللد وتبنين، والقرى الممتدة بيد الفرنج وهى عشر سنوات.
5. تعهد فردريك بعدم القيام بأي هجوم على مصر، حتى المساعدة فيه، وأن يسعى بنفوذه للقضاء على أية محاولة فرنجية للهجوم على أملاك الكامل.

ثم حلف السلطان الملك الكامل على ما وقع الاتفاق عليه، وحلف الإمبراطور، وعقدوا عقد الهدنة مدة معلومة، وانتظم بينهم الأمر، وأمن كل من الفريقين صاحبه[70].

ولما تقررت قواعد الهدنة بين الكامل وفردريك الثاني، أقلع الامبراطور عائدًا إلى بلاده، بعد أن تسلم القدس سلمًا دون حرب، وهو ما لم يستطعه أعظم ملوك أوروبا قبله أن يفعلوها، واستمر مصافيًا للملك الكامل، موادًا له، والمراسلة بينهما متصلة [71].

ثالثًا: تحليل بنود اتفاقية الصلح بين الكامل فردريك الثاني في صلح يافا وتسليم القدس

1. التحليل الزماني لمدة الاتفاق:

تقرر تحديد مدة المعاهدة بمدة عشر سنوات متتابعة، وهذا المدة طويلة جدًا، وخاصة أن ظروف القوة متوفرة في أيدي المسلمين أكثر من الفرنج؛ لأن أمر مصر وإمارات الشام أصبح في يد الكامل وأخية الأشرف، وأصبح الأسطول الأيوبي كلمة واحدة، وخاصة بعد معركة دمياط، في حين كان عامل الوقت في صالح الفرنج؛ لأن القدس أصبحت في أيديهم، وأعطى الصلح الوقت الكافي لترميم موقفهم في الساحل بعد المعارك التي شنها صلاح الدين.

2. التحليل الجغرافي للاتفاق:

تنازل الكامل عن مدينة القدس باستثناء الحرم القدسي، وكذلك كل من بيت لحم، والناصرة، وصيدا، فقد سقط بهذا الاتفاق عنصر السيادة على مدينة القدس الشريف، بالإضافة إلى تسليم مدينة بيت لحم، والناصرة، وصيدا البحرية.

إضافة إلى ذلك: اشترط الكامل أن تبقى مدينة القدس كما هي، فلا يجدد سورها، وهذا الأمر يحسب للكامل، ولكن كان بشكل مستقبلي، حتى لا يتقوى عليها الفرنج، وهذا الأمر ذكرة الملك الأشرف والكامل قبيل تخريب أسوار القدس؛ حتى لا يتقوى به الفرنج.

3. التحليل السيادي للاتفاقية:

حاول الكامل أن يحفظ ماء وجهه بعد أن فرط في الأراضي الفلسطينية ومدينة القدس، فقد أصر في الاتفاقية على عنصر سيادة المسلمين على الجزء اليسير من المدينة، وهي المقدسات الإسلامية فيها، وأن تكون حرية

---

(70) ابن واصل، مفرج الكروب (ج4/ ص: 243)؛ والمقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، (ج1 / ص: 230).

(71) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، (ج4/ص: 246)؛ وغوانمة، يوسف حسن، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج (خطاب جديد في العجز الإسلامي والعربي والمشروع النهضوي الغربي الوحدوي)، دار الفكر للنشر والتوزيع، 1995م، (ص: 70).

العبادة فيها للمسلمين، وأن لا يقيم فيها الفرنج الا للزيارة، وهذا الأمر يفتقر إلى أدنى مفهوم للسيادة، فالسيطرة الفعلية هي للفرنج، ولا يوجد أي قوة أيوبية في المنطقة، وقد اقتصرت على حرية العبادة فقط.

وهذا الأمر ينفيه ما أمر به الكامل لقاضي نابلس، الذي رافق الملك فريدرك الثاني أثناء التسليم، والذي أمر المؤذنين إِلَا يؤذنوا تِلكَ اللَيلَة .[72]

وهذا القول نجد فيه نوعًا من الاعتراف بقوة الأيوبيين، فقد صنعوا من قبل نصر دمياط، وكان الملك المعظم بن العادل قد عزم على قتالهم لوحده، بدون مساعدة الكامل والأشرف، ولكن ضعف شخصية الكامل التفاوضية هي التي أوصلته إلى هذا المهزلة التفاوضية، وكان الحال: "فنوديَ بالقدس بِخروج المسلمين مِنه، وتسليمه إلى الفرنج، فَاشتَدَ البكاء، وَعظم الصرَاخ والعويل، وَحضر الأَئِمَة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكَامِل، وأذنوا على بَابه فِي غير وَقت الأَذَان، فعز عَلَيهِ ذَلِك، وَأمر بِأخذ مَا كَانَ مَعَهم من الستور، والقناديل، والفضة، والآلات، وزجرهم، وَقيل لَهم: امضوا إلى حَيث شِئتم، فَعظم على أهل الإسلام هَذَا البلَاء، وَاشتَدَ الإِنكَار على الملك الكَامِل، وَكَثرت الشناعات عَلَيهِ فِي سَائِر الأقطار".[73]

وقد شنع الملك النَاصِر دَاود بِدِمَشق على عَمه الملك الكَامِل تسليمه القدس للفرنج، فنفرت قلوب الرعية، وحزن النَاس على استِيلَاء الفرنج عَلَيهِ.[74]

وقد حاول ابن واصل أن يبرر ما قام به الكامل، فقال: " كان علم الملك الكامل أن الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره، وإنه إذا قضى غرضه، واستتبت الأمور له، كان متمكنًا من تطهيره من الفرنج وإخراجهم منه، وقال السلطان الكامل: إنا لم نسمح لهم إلا بكنائس وآدر خراب، والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين على حاله، وشعار الإسلام قائم على ما كان عليه، ووالى المسلمين متحكم على رساتيقه وأعماله".[75]

والغريب أن الصليبيين لم يعجبهم استرداد الامبراطور فريدرك الثاني لمدينة القدس، وأخذوا يعبرون عن غضبهم بشتى الصور، فقال البعض منهم: إن كرامة المسيحية كانت تحتم أن يؤخذ بيت المقدس بحد السيف، وليس بالاستجداء والبكاء كما فعل فريدرك الثاني، أما البعض الآخر فأخذ يوضح أن لا أهمية لبيت المقدس بدون حصني الكرك والشوبك، وهذا ما جعل الصليبيون يرفضون عرض الملك الكامل عليهم بتسليمهم بيت المقدس أثناء الحملة الفرنجية الخامسة إبان حصار دمياط، أما البعض الثالث من الصليبيين فقالوا: أن لا قيمة لأي مكسب أو انتصار يحققه امبراطور محروم من الكنيسة ومن رعاية القديس، وقد وقع بطريرك مملكة بيت المقدس قرار الحرمان على مدينة بيت المقدس نفسها، وعلى كل من فيها من المسيحيين إذا استقبلوا الامبراطور فريدرك الثاني في المدينة.[76]

وهذا الأمر فيه أن الامبراطور فردريك الثاني عمل على استعادة القدس لتحقيق ما ذكرة ابن واصل، حيث قال: وبلغني أن الإمبراطور قال: "لولا أنى أخاف انكسار جاهي عند الفرنج، لما كلفت السلطان شيئًا من ذلك، وما لي غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصدت حفظ ناموسي عندهم".[77]

---

(72) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك (ج1/ ص: 354)

(73) المرجع السابق، (ج1/ ص: 354).

(74) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، (ص: 4/ ج243)؛ والمقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، (ج1/ ص: 355).

(75) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، (ج4/ ص: 243).

(76) غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، (ص: 83).

(77) ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، (ج4/ ص: 243).

ولما انتهى أمر التفاوض والصلح، عاد الإمبراطور إلى عكا؛ خوفًا من اغتياله من الإسبتارية[78]، وبهذا انتهت الحملة الفرنجية السادسة، وهي الحملة الأكثر غرابة بين مجموع الحملات الصليبية القادمة إلى الشرق الإسلامي، فلم تقاتل، بل تفاوضت، وحققت ما لم تحققه الحملات العسكرية على الإطلاق، فلم يخسر الصليبيون أي شيء، إلا أن النقمة على الملك فريدرك الثاني ظلت قائمة؛ بسبب معاداته للكنيسة، وقد كان محل مهاجمة من قبل المؤرخين الغرب جراء عقدة الاتفاق، في حين ظل الملك الكامل على العداء بينه وبين إخوته، وظلت الأمور تزداد سوءًا إلى وفاته، وكذلك ورثته، فقد صار الأمر إلى العادل الثاني[79]، والذي كان له السلطة العليا في السلطنة الأيوبية.

المبحث الرابع: الحملة الفرنجية السابعة على مصر

لم تمض ثلاث سنوات على انتهاء الحملة الصليبية السادسة التي استهدفت مصر، حتى توجهت الحملة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا إلى هذا البلد؛ بهدف الاستيلاء عليه، وتحقيق الحلم الصليبي القديم، وهو استعادة بيت المقدس، وأراضي بلاد الشام، وتدعيم الكيان الصليبي المتداع، وحدث عقب المعركة التي انتصر فيها الملك الصالح أيوب وحلفاؤه الخوارزميون على التحالف الدمشقي الصليبي، والتي سميت معركة أربِيا، أن أرسل (روبرت) بطريرك بيت المقدس سفارة إلى أوروبا الغربية؛ لتشرح للبابا أنوسنت الرابع (1242م – 1254م) خطورة الموقف في بلاد الشام، وتطلب منه المساعدة العاجلة؛ حتى لا يتعرض الصليبيون للفناء.[80]

ففي شهر حزيران من سنة (643هـ/ 1245م) عقد البابا أنوسنت الرابع مجمعًا في مدينة ليون الفرنسية؛ للتباحث فيما ينبغي اتخاذه من تدابير؛ لمقاومة أطماع الإمبراطور فريدرك الثاني، ولحق به أعضاء السفارة، وقدَموا للجميع تقريرًا عن أوضاع الصليبيين في الشرق، فتقرر إرسال حملة صليبية جديدة؛ لتدارك الموقف قبل فوات الأوان.[81]

وتعد هدنة معاهدة يافا (626هـ/1229م)، والعشر سنوات المنبثقة عن الاتفاق بين الكامل الأيوبي والإمبراطور فردريك الثاني فرصة للفرنجة ولزعماء الغرب الأوروبي؛ للاستعداد لجولة عسكرية جديدة ضد المسلمين، اشتهرت بين المؤرخين بالحملة الصليبية السابعة، وتزعمها ملك فرنسا آنذاك لويس التاسع[82]، فانطلق الملك الفرنسي لويس التاسع بأسطوله نحو الشرق، بحملة صليبية؛ لاسترداد بيت المقدس، ووصلت هذه السفن إلى جزيرة قبرص في (27 ربيع آخر 646هـ/25 أغسطس 1248م)، حيث أمضى فيها ثمانية أشهر، ثم انطلق إلى مصر[83]، باعتبارها مفتاح الأمان لبيت المقدس، ومركز القوة والمقاومة في الشرق الإسلامي، وقد علم الصالح نجم الدين أيوب

---

(78) المرجع السابق، (ج4/ ص: 246).

(79) العادل الثاني: العادل سيف الدين أبو بكر بن الكامل، المولود في سنة (603هـ) هو السلطان الأيوبي السادس، تولى الحكم بعد وفاة أبيه الكامل سنة (635هـ)، عُرف عنه الفسوق، وانشغاله بالترف واللهو، فخلعه أخوه نجم الدين أيوب سنة (637هـ). ينظر: المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، (ج1/ ص: 429).

(80) رنسيمان، الحروب الصليبية (ج3/ ص: 440 -441)؛ والصلابي، على محمد، الجذور التاريخية للحروب الصليبية، دار الكتاب الحديث: 2008م، (ص: 342).

(81) ديورانت، قصة الحضارة (15ج/ 57).

(82) رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، (ج3/ ص: 230-331).

(83) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد، اليونيني، (المتوفى: 726هـ)، بعناية: وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة: الثانية، 1413هـ- 1992م، عدد الأجزاء: 4، (ج2/ ص: 206). ورنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية (ج3/439-444).

بنبأ هذه الحملة من صديقه فردريك الثاني، ومن التجار الأوروبيين القادمين إلى مصر، الذين شهدوا حجم الاستعدادات، ووصلت هذه السفن قبالة دمياط في (21 صفر 647هـ/27 ديسمبر 1249م).[84]

وقد كان عند الملك الفرنسي لويس التاسع من الدوافع ما حمله على الاشتراك بها، بينما أحجمت ألمانيا وإيطاليا عن مساندتها، بفعل الصراع الذي كان قائمًا آنذاك بين البابوية والإمبراطورية، والحقيقة أن الإمبراطور فريدريك الثاني انتهج سياسة مزدوجة تجاه الحملة، حيث قام بتزويدها بالمؤن عند مرورها بصقلية في طريقها إلى قبرص، كما احتفظ بعلاقات طيبة مع حلفاء الكامل محمد، فاتصل سرًا بالصالح أيوب، وأرسل إليه سفارة يعلمه بتحرك الصليبيين ونواياهم، ولقد تعَدت وتشعَبت أسباب هذه الحملة.[85]

أولًا: دوافع الحملة السادسة على مصر

ولعل من أهم الدوافع الحقيقية التي أثارت المجتمع الغربي بعامة، وشعور الملك الفرنسي بخاصة، ودفعت الجميع للثأر، هي:[86]

1. تعرض الصليبيين في الشرق إلى مضايقات خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي على يد الخوارزميين، بشكل خاص.
2. ضياع بيت المقدس منهم، حيث استعادها الصالح أيوب بمساعدة الخوارزميين الذين نكَّلوا بسكانها النصارى، ونهبوا دورهم وأموالهم، حتى أضحى وضعهم مقلقًا من وجهة النظر الصليبية.
3. لقد أنزل المسلمون ضربات قاسية بباقي الممتلكات الصليبية في بلاد الشام، تمثَل بعضها باستعادة الصالح أيوب طبرية وعسقلان، حتى أضحت باقي ممتلكاتهم ومعاقلهم مهَددة بالخطر والضياع.

ثانيًا: مفاوضات الملك نجم الدين مع لويس التاسع قبل الحملة

قد سبق الحملة بعض المفاوضات التي كانت على شكل مراسلات متبادلة، حيث وصفت هذه الرسائل بالتهديدية من قبل الملك لويس التاسع، وجاء في نصها: " أما بعد، فَإِنَه لم يخف عَنك أَنِي أَمِين الأمة العيسوية، كَمَا أَنِي أَقول أَنَك أَمِين الأمة المحمدية، وَإِنَه غير خَافَ عَنك أَن أهل جزائر الأندلس[87] يحملون إِلَينَا الأَمَوَال والهدايا، وَنحن نسوقهم سوق البَقر، ونقتل الرجال مِنهم، ونرمل النِسَاء، ونستأسر البَنَات وَالصبيان، ونخلي مِنهم الديار، وَقد أبديت لَك مَا فِيهِ الكِفَايَة، وجليت لَك النصح إِلى النِهَايَة، فَلَو حَلَفت لي بِكل الأَيمَان، وَدخلت على القسوس والرهبان، وحملت قدامي الشمع طَاعَة للصلبان، مَا ردني ذَلِك عَن الوصول إِلَيك وقتلك فِي أعز البِقَاع عَلَيك، فَإِن كَانَت البِلَاد لي فيا هَدِيَة حصلت فِي يَدي، وَإِن كَانَت البِلَاد لَك، وَالغَلَبَة عَلي، فيدك العليا ممتدة إِلَي، وقد عرفتك وحذرتك من عَسَاكِر قد حضرت فِي طَاعَتي، تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحَصَى، وهم مرسلون إِلَيك بأسياف القضاة" [88]

(84) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة (ج6/ ص: 362)؛ وأبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، الملك المؤيد، عماد الدين اسماعيل ابن علي، المعروف بأبي الفداء، تحقيق: محمد عزب، ويحيى سيد حسين، دار المعارف، الطبعة الأولى، (ج2/ ص: 490).

(85) ديورانت، قصة الحضارة (ج15/ ص: 57).

(86) الصلابي، الحملات الصليبية، (ص: 344).

(87) الأندلس: هي منطقة شبه جزيرة إيبيريا في جنوب غرب أوروبا، بالقرب من المغرب، وهي تضم الآن دولتي إسبانيا والبرتغال، وقد شهدت حضارة إسلامية راقية. ينظر: الحموي، معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت: ٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥م، (ج1/ ص: 262-263).

(88) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، (ج1/ ص: 437).

فرد علية الملك نجم الدين أيوب: "أما بعد، فَإِنَه وصل كتابك، وَأَنت تهدد فِيهِ بِكَثْرَة جيوشك وَعدد أبطالك، فَنحن أَربَاب السيوف، وَمَا قتل منا قرن إِلَا جددناه، وَلَا بغى علينا بَاغ إِلَا دمرناه، فَلَو رَأَت عَينَاك أَيهَا المَغرور حد سيوفنَا، وَعظم حروبنا، وفتحنا مِنكم الحصون والسواحل، وإخرابنا ديار الأَوَاخِر والأوائل؛ لَكَانَ لَك أَن تعض على أناملك بالندم، ولابد أَن تزل بك القدَم، فِي يَوم أَوله لنا وَآخره عَلَيك، فهنالك تسيء بك الظنون".[89]

ويتضح من هذه الرسائل والمفاوضات حالة الغرور التي تتصف بها قيادة الحملة الصليبية السابعة، والهدف منها إثارة العامل النفسي لدى المسلمين، وإحباط الروح المعنوية، خصوصًا أن لويس التاسع كان يعتقد أنه على علم تام بأحوال البيت الأيوبي، وما يعانيه من الصراع والتمزق، وأن هذا العلم هو السبب في ثقته بنصر سيحققه.

وأيضًا تتضح العزة والإباء في رسالة الصالح نجم الدين أيوب، التي تنبع من الإيمان بقوة المسلمين ونصر الله، ويبدو أن لويس التاسع كان واثقًا من تحقيق حملته النصر على المسلمين، وأنه سينتزع منهم بيت المقدس.[90]

ثالثاً: مفاوضات الملك توران شاه مع الملك لويس التاسع

وفي خضم المواجهات الأيوبية الصليبية الاستنزافية، توفى السلطَان الصَالح نجم الدين بالمنصورة، وَهوَ فِي مقَابلَة الفرنج عَن أَربع وَأَربَعين سنة، بَعدَمَا عهد لوَلَده الملك المعظم تورانشاه، وتم كتمان مَوته حَتَى يقدم ابنه تورانشاه من حصن كيفا، وَكَانَت مدَة ملكه بِمصر عشر سِنِين إِلَا خمسين يَومًا، فَغسله أحد الحكَمَاء الَذين توَلوا علاجه لكَي يخفى مَوته، وَحمل فِي تَابوت إِلى قلعة الرَوضَة، وأخفى مَوته فَلم يشتَهر إِلى ثَانِي عشري رَمَضَان، ثمَ نقل بعد ذَلِك بِمدَة إِلى تربته، بجوار المدَارِس الصالحية بِالقَاهِرَةِ[91]، وقد دعى إلى القدوم السلطان تورانشاه من حصن كيفا لتولي الحكم خلفا لأبيه.

وصل الملك المعظم توران شاه إلى المنصورة لأخذ مكانه في قيادة المعركة، وكان مسار المعركة تغير لصالح المسلمين بتحقيقهم انتصارات عدة، وأصبح الصليبيون في ضيق شديد، وكان وقع هزائمهم أليمًا في نفوسهم، فأرادوا الخروج من هذا المأزق، فاجتمعوا على التفاوض مع المعظم توران شاه قبل أن تحل بهم هزيمة قاسية[92]، فربما أتاح لهم التعجيل في المفاوضات الحصول على شروط أحسن، فراسلوا المعظم توران شاه يطلبون الهدنة[93]، وينظر مؤرخون أن توران شاه وضع منذ اللحظة الأولى لوصوله لأرض المعركة خطته لإجبار الصليبيين على الاستسلام بقطع المدد البحري عن قواتهم بدمياط، وقد نجح في ذلك.[94]

اجتمع المفاوضون عن الطرفين، فعرض الصليبيون تسليم دمياط، مقابل التخلي لهم عن بيت المقدس والساحل[95]، فلم تكن الشروط التي طرحها الصليبيون معقولة، نظرًا لموقفهم الحرج، فرفض المسلمون العرض الصليبي، وعيًا منهم بحالة الصليبيين، وبنمو روح الجهاد لتمحو عار هزيمة دمياط، وإزاء فشل المفاوضات تأزم وضع الصليبيين.[96]

---

(89) المرجع السابق، (ج1/ ص: 437).

(90) حبشي، حسن، الشرق العربي بين شقي الرحى، حملة القديس لويس على مصر والشام، دار الفكر العربي، 1958م، (ص: 39).

(91) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك (ج1/ ص: 441).

(92) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (ج5/ ص: 416)؛ والمقريزي، السلوك لمعرفة أخبار الملوك، (ج1/ ص: 114).

(93) يوسف، جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام، دار الكتب الجامعية، ط1، 1971م، (ص: 131).

(94) نصر الله، سعدون عباس، رحيل الصليبيين عن الشرق في العصُور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، 1995م، (ص: 33).

(95) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (ج5/ ص: 416)؛ ورنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، (ص: 464).

(96) يوسف، العدوان الصليبي، (ص: 193-194).

انفرد جوانفيل بقوله: أن رسل السلطان توران شاه وافقوا على طلبات الصليبيين، إلا أنهم طلبوا ضمانة للانسحاب من دمياط، فعرض الصليبيون عليهم أن يحجزوا أحد أشقاء الملك لويس، لكنهم رفضوا أي رهينة غير الملك لويس نفسه، فرفض رسل الملك لويس هذا الطلب، وبذلك فشلت المفاوضات[97]، إلا أن المؤرخين العرب يؤكدون رفض رسل السلطان توران شاه لطلبات الصليبيين من البداية للأسباب آنفة الذكر.

لجأ الفرنج إلى فتح باب المفاوضات مع توران شاه، حينما تلقوا هزيمة شديدة جراء تقدمهم باتجاه المنصورة، وقد وضعوا شرط ترك دمياط مقابل أخذ بيت المقدس[98]، غير أن الوقت قد فات على مثل هذه المساومة، وكان من الطبيعي أن يرفض توران شاه هذه الاقتراح، وبخاصة أنه علم بحرج موقف الملك، وفي صباح (1محرم عام 648هـ/نيسان عام 1250م) بدأت عملية الانسحاب الفرنجية من مواقعهم المتقدمة، والرجوع إلى دمياط، حيث بدأوا بتدمير الجسر الذي أقاموه لاجتياز البحر الصغير، فلم يلبث المماليك أن عبروه وراءهم، وقاموا بعملية مطاردة منظمة، وهاجموهم من كل ناحية .[99]

هاجمت القوات الإسلامية الصليبيين عند فارسكور في 3 محرم 648هـ/ 6 أبريل 1250م، فقتلت وأسرت منهم الكثير، واستسلم الباقون، فأرسل الملك لويس أحد قادة جيشه وهو فيليب مونتفورت [100]إلى أقرب قائد مصري في طلب الصلح ووقف القتال، مقابل إخلاء دمياط، والموافقة على رغبات المصريين وعروضهم، ولكن حدث في الوقت الذي كان فيه الطرفان على وشك الاتفاق أن نزلت بالجيش الصليبي كارثة وضعت حدًا للمفاوضات، فقد تقدم جندي عادي في الجيش الصليبي يدعى مارسيل إلى البارونات[101] والقواد والأجناد، قائلًا لهم: "أنه موفد من قبل الملك لويس، يطلب منهم الاستسلام للجيش المصري دون قيد أو شرط، حتى لا يُعرِّضوا حياته للخطر، فاستسلموا لإنقاذ ملكهم، ويعتقد رنسيمان أن هذا الجندي تلقى رشوة من المصريين، فقضت خيانة هذا الجندي على المفاوضات، حيث رفض القائد المصري الاستمرار في المفاوضات، عندما رأى الصليبيين يلقون أسلحتهم ويستسلمون، ثم أحاطت القوات الإسلامية بالملك لويس التاسع وكبار قادته، فطلب الأمان فأمّنوه، إلا أن من كانوا معه رفضوا الاستسلام، فقاتلهم المسلمون حتى قضوا على آخرهم، ثم اقتادوا الملك لويس أسيرًا، حيث تُحفظ عليهم في دار ابن لقمان[102] في المنصورة .[103]

وتعد معركة فارسكور مصيرية، إذ كتبت فصل النهاية لحملة لويس، ولو قُدِّر للصليبيين الانتصار فيها لزحفوا إلى عمق البلاد المصرية واحتلوها، وواصلوا زحفهم إلى فلسطين وسواحل الشام.[104]

---

(97) جوانفيل، جان دي، القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام، دار المعارف، 1968م، (ص: 140-141).

(98) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، (ج1/ ص: 451).

(99) ابن تغري، النجوم الزاهرة، (ج6/ ص: 364).

(100) فيليب مونتفورت: كان سيدا الإقطاع تبنين الصليبي، ثم بسط سيادته على صور ابتداء من سنة (641هـ/1243م). ينظر: رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، (ج3/ ص: 384-388).

(101) بارونات: جمع بارون، لقب نبيل أرستوقراطي في الأنظمة الملكية الاقطاعية. ينظر: عاشور، سعيد عبد الفتاح، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، 1976م، (ج2/ ص: 65-70).

(102) دار ابن لقمان: تنسب للقاضي المصري إبراهيم بن لقمان، وهي دار أثرية، اكتسبت شهرتها من أسر لويس التاسع واحتجازه فيها. ينظر: الزركلي، الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي، الدمشقي، (المتوفى: 1396هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة: 15، 2002م، (ج1/ ص: 58).

(103) ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، (ج5/ ص: 416)؛ والمقريزي، السلوك لمعرفة أخبار الملوك، (ج1/ ص: 116)؛ وجوانفيل، القديس لويس، (ص: 148)؛ ورنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية، (ص: 465).

(104) حبشي، الشرق العربي، (ص: 79).

رابعاً: مفاوضات فارسكور بين توران شاه ولويس التاسع في الأسر، وشروط الصلح

لم يهتم المسلمون كثيرًا بعد انتصارهم بأمر دمياط، ونظروا إلى أبعد من ذلك، ففكرَوا باسترداد ما بأيدي الصليبيين في بلاد الشام، فاستغلوا وجود الملك الفرنسي لويس التاسع في الأسر لتحقيق هذه الغاية، لكن لويس التاسع أجاب بأن هذه البلاد ليست في أملاكه، بل تخص الملك (كونراد) ابن الإمبراطور فريدريك الثاني، وعبثًا حاول تورانشاه إرغامه على الاعتراف، وأصَر لويس التاسع على رأيه، وقال: إنه أسيرهم، ولهم أن يفعلوا به ما يشاؤون[105]، فبادر تورانشاه إلى إغفال هذا الموضوع، لكنه قرَر غزو بلاد الشام، وغالى في شروط الصلح.

إذ كان لزامًا على الملك الفرنسي أن:[106]

- يفتدي نفسه بأن يؤدي مليون بيزنته[107]، وهذا مبلغ كبير.
- يطلق سراح عدد كبير من الأسرى المسلمين.
- يسلم دمياط إلى المسلمين.
- يستمر الصلح مدة عشر سنوات.[108]

وافق الملك الفرنسي على هذه الشروط، وأقسم الطرفان على احترامها[109]، وانتظر لويس لبعض الوقت، حيث كانت زوجته تعاني آلام الوضع، وأرسل بعض رجاله إلى دمياط لتسليمها للمسلمين، ودخلت القوات المدينة في السابع من مايو، بعدما ظلت في أيدي قوات لويس ما يقرب من عام، ودفع لويس نصف الفدية حسبما اتفق عليه، وأطلق سراح الصليبيين من البر الشرقي إلى جيزة دمياط، ثم تبعهم باقي الصليبيين، وفي يوم الأحد الرابع من صفر سنة (648هـ الموافق الثامن من مايو عام 1250م) أقلعت سفن الفرنج، واتخذت طريقها إلى عكا، حاملة فلول الحملة، بعد أن أنهكتها الهزائم، وحلت بها الكوارث.[110]

النتائج:

1. كانت القدس محور الصراع خلال الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي في عهد صلاح الدين الأيوبي، وقد حارب الصليبين وحرر بيت المقدس وحقق الكثير من الانتصارات ورفض التخلي عن القدس.
2. فالرغم من تمسك المسلمين بالقدس، ورفض المسلمين الاحتلال الصليبية؛ لما تحمله القدس من أهمية كبيرة لدى العقيدة الإسلامية، إلا أن المصلحة الشخصية، والخوف على كرسي السلطة كان سبب في المساومة على القدس في الحملات الصليبية الخامسة والسادسة والسابعة.
3. ساوم بعض حكام الأيوبيين للتنازل والمساومة على القدس في مفاوضاتهم مع الجانب الصليبي، وظهر ذلك في تنازل الكامل عن القدس للصليبين، من خلال اتفاقية يافا، وهذا دليل صارخ على عدم التمسك بالقدس؛ للحفاظ على كرسي السلطة في مصر في حينه.

---

(105) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك (ج1/ ص: 441)؛ وطقوش، محمد سهيل، تاريخ الحروب الصليبية، حروب الفرنجة في المشرق 489-690هـ، دار النفائس، الطبعة: الأولى، 2011م، (ص: 389).

(106) الصلابي، الحملات الصليبية، (ص: 360).

(107) مقدار الفدية كان خمسمائة ألف ليرة تورناوية، أي ما يعادل مليون بيزنته بعملتهم.

(108) المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، (ج1/ ص: 441)؛ وطقوش، تاريخ الأيوبيين، (ص: 389).

(109) طقوش، تاريخ الأيوبيين، (ص: 389).

(110) سعيد، تاريخ الحروب الصليبية، (ص: 315)

التوصيات: بناءً على النتائج التي تم التوصل إليها توصي الدراسة بالتالي:

1. يتضح من الدراسة ضرورة التوجه بالدراسات النقدية والتحليلية لفترة الاحتلال الصليبي للمشرق الاسلامي؛ حتى تستفيد الأمة العربية والإسلامية اليوم في كيفية التعامل مع الحركة الصهيونية العالمية، التي كانت هي الأساس في إيجاد الكيان الصهيوني في فلسطين، بما يشكل الامتداد الطبيعي للغرب الصليبي.
2. إعداد دراسات تتخذ من المصادر والمراجع الأجنبية أساسًا لمعلوماتها، وذلك لمعرفة وجهة النظر الغربية والأوروبية فيما يتعلق بموضوع المفاوضات والمعاهدات بين الأيوبيين والصليبية.
3. دعوة السياسيين وصناع القرار إلى قراءة ودراسة المفاوضات الإسلامية الصليبية؛ للاستفادة من تجارب القادة المسلمين في العهد الأيوبي، في ادارة المفاوضات والكيفية التي عقدوا فيها المعاهدات والاستراتيجية المستخدمة والوقوف على محطاتهم الجهادية، والتعلم من اجتهاداتهم، سواء كانت صائبة أم خاطئة؛ لكي يتم الاستفادة من تلك التجربة

قائمة المراجع

أولًا: المصادر

1. ابن الأثير، أبو الحسن على بن أبي الكرم (ت 630هـ)، الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام، الطبعة: (1997م)، بيروت، دار الكتاب العربي.
2. الأصبهاني، حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس «وهو الكتاب المسمى الفتح القسي في الفتح القدسي» المؤلف: أبو عبد الله، محمد بن (محمد صفي الدين) ابن (نفيس الدين حامد) بن أُلْه، عِمَاد الدِّين الكاتب الأصبهاني (المتوفى: 597هـ) الناشر: دار المنار الطبعة: الأولى، 1425 هـ - 2004 م عدد الأجزاء:1.
3. ابن تغري بردي، يوسف بن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (ت ٨٧٤هـ)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، عدد الأجزاء: 16.
4. الحموي، معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت: ٦٢٦هـ)، دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥م.
5. ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (ت ٨٠٨هـ)، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
6. الدواداري، أبو بكر بن عبد الله بن أيبك، كنز الدرر وجامع الغرر، تحقيق: بيرند راتكه وآخرون، عيسى البابي الحلبي، 1982م، عدد الأجزاء: 9.
7. الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ)، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، عدد الأجزاء: 52.
8. سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قِزْأُوغلي بن عبد الله المعروف بـ (سبط ابن الجوزي) (٥٨١ - ٦٥٤هـ)، تحقيق وتعليق: محمد بركات، وآخرون، دار الرسالة العالمية، دمشق، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، عدد الأجزاء: ٢٣.

9. ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين الأيوبي)، يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة الأسدي الموصلي، أبو المحاسن، بهاء الدين ابن شداد (ت ٦٣٢هـ)، تحقيق: الدكتور جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
10. العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى (ت: ٨٥٥هـ).
11. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، الملك المؤيد، عماد الدين اسماعيل ابن علي، المعروف بأبي الفداء، تحقيق: محمد عزب، ويحيى سيد حسين، دار المعارف، الطبعة الأولى.
12. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (ت: ٨٤٥هـ)، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، لبنان، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ- 0 ١٩٩م، عدد الأجزاء: ٨.
13. المقريزي، المقفى الكبير، تقي الدين المقريزي (ت ٨٤٥ هـ)، تحقيق: محمد اليعلاوي، دار الغرب الاسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، عدد الأجزاء: ٨.
14. ابن واصل، أبو عبد الله المازني التميمي الحموي، جمال الدين (ت ٦٩٧هـ)، تحقيق: جـ ١، جـ ٢، جـ ٣: الدكتور جمال الدين الشيال، جـ ٤، جـ ٥: الدكتور حسنين محمد ربيع والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب والوثائق القومية - المطبعة الأميرية، القاهرة، جمهورية مصر العربية، ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م، عدد الأجزاء: 5.
15. اليونيني، ذيل مرآة الزمان، قطب الدين أبو الفتح موسى بن محمد، اليونيني، (المتوفى: 726هـ)، بعناية: وزارة التحقيقات الحكمية والأمور الثقافية للحكومة الهندية، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة: الثانية، 1413هـ- 1992م، عدد الأجزاء: 4، (ج2/ ص: 206). ورنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية.

ثانيًا: المراجع

1. الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي، الدمشقي، (المتوفى: 1396هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة: 15، 2002م.
2. حبشي، حسن، الشرق العربي بين شقي الرحى، حملة القديس لويس على مصر والشام، دار الفكر العربي، 1958م.
3. الصلابي، على محمد، الجذور التاريخية للحروب الصليبية، دار الكتاب الحديث: 2008م.
4. طقوش، محمد سهيل، تاريخ الحروب الصليبية، حروب الفرنجة في المشرق 489-690هـ، دار النفائس، الطبعة: الأولى، 2011م.
5. عاشور، سعيد عبد الفتاح، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، مصر، 1996م.
6. عاشور، سعيد عبد الفتاح، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، 1976م.
7. عمران، محمود سعيد، تاريخ الحروب الصليبية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، 1991م.
8. غنيم، إسمنت، الدولة الأيوبية والصليبيون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1990م.
9. غوانمة، يوسف حسن، معاهدات الصلح والسلام بين المسلمين والفرنج (خطاب جديد في العجز الإسلامي والعربي والمشروع النهضوي الغربي الوحدوي)، دار الفكر للنشر والتوزيع، 1995م.
10. نصر الله، سعدون عباس، رحيل الصليبيين عن الشرق في العصُور الوسطى، دار النهضة العربية، بيروت، 1995م.

11. يوسف، جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على بلاد الشام، دار الكتب الجامعية، ط1، 1971م.

ثالثًا: المراجع الأجنبية

1. جوانفيل، جان دي، القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام، دار المعارف، 1968م.
2. ديورَانت، ويليام جيمس ديورَانت، قصة الحضارة، دار الجيل، 1988م، بيروت، لبنان.
3. رانسيمان، ستيفن، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة: نور الدين خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: الأولى، 1994م.
4. قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، المجلي الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978م.